

## تمهيد

- العَرَبُ ورسالة الاسلام
- حَوَّلَ السُّنَّةَ
- السُّنَّةَ وَمَكَانَهَا مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ
- عَدَالَةُ الصَّاحِبَةِ
- حَفِظَ السُّنَّةَ وَأَنْتَشَرَهَا

obeikandi.com

## العرب ورسالة الإسلام

منذ أربعة عشر قرناً ، بينما كان يعيش العالم كله في ظلام فكري ، وتأخر علمي ، وظلم اجتماعي ، أشرق في أرض الجزيرة العربية شمس الهداية ، وعلت في الأفق تطارد ذاك الظلام ، تنير للعالم سبيله ، وترسم له طريق التقدم والرفق والنجاح .

تلك الشمس شمس النبوة التي حملها محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ بعثه الله عز وجل . « بالحق بشيراً ونذيراً » (١) ، « وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » (٢) .

وشرفه بالرسالة السامية الخالدة ، إلى الناس كافة ..

« قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » (٣) .

وقال تعالى :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٤) ، « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » (٥) .

وأمره أن يبلغ أحكام الإسلام وتعاليمه فقال :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدي القوم الكافرين » (٦) .

ومن فضل الله على الأمة العربية أن بعث فيهم : « رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (٧)

(٢) الأحزاب : ٤٦ .

(٤) الأنبياء : ١٠٧ .

(٦) المائدة : ٦٧ .

(١) فاطر : ٢٤ .

(٣) الأعراف : ١٥٨ .

(٥) سبأ : ٢٨ .

(٧) الجمعة : ٢ .

فأمره أن يدعو أهله وعشيرته ، فقال :  
« وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » (١)

وقال عز من قائل :

« وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر  
يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير » (٢) .

أمره أن يدعو قومه إلى سبيل الرشاد ، ليحملوا عبء تبليغ الرسالة  
إلى الأمم الأخرى ، فيكون لهم شرف المبلغ الهادي ، ويخلصهم أبد  
الدهر ، كما أراد الله للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، وللأمة العربية  
التي تلقت الرسالة ، وانطلقت تحرر العالم من الظلم والطغيان ، وتوجه مركب  
الإنسانية إلى شاطئ السلام ، وتخرجه من الظلمات إلى النور ، سالكة سبيل  
الهداية والحق ، حاملة لواء التحرير . . . بعد أن تنكب الناس الصراط  
المستقيم ، وتخطوا في غياهب الجهالة والضلال .

إلا أن هداية العرب لم تكن سهلة ، بل تحمل الرسول الكريم عليه  
الصلاة والسلام في سبيلها المشاق الكثيرة ، وأوذى في جسده وماله ،  
وأهله وأصحابه ووطنه ، وكان يدعو ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً ، ويسأل الله  
السداد والرشاد ، متطوعاً إلى هداية قومه ليحملوا الرسالة ويؤدوا الأمانة .

لقد أوحى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقومه على دين  
آبائهم ، وثنية وأصنام ، يسودهم النظام القبلي ، وتربط بينهم صلة القرابة  
والدم ، لا يحكمهم نظام عام ، بل يخضعون للعادات والأعراف ، يدفعهم  
الشرف والمفاخرة بالأنساب إلى المنافسة في المكارم والمروءات ، يعيشون  
في حلقة الأسرة والقبيلة ، في إطار الجزيرة العربية .

وكان لحياتهم تلك أثر بعيد في صفاء نفوسهم ، ومحافظةهم على أمجادهم  
وعاداتهم ، وتفانيهم في سبيل مثلهم الأعلى ، حتى كانوا يسرفون في ذلك  
كله ، فهم كرام يبذلون ما يستطيعون للضيف ، فيبلغون في ذلك حد الإسراف .

ويأبون العار ولو أدى بأعز ما لديهم إلى الردى ، ولهذا وأدوا بناتهم خشية الفقر والزلل . ويحبون تحقيق الأجداد والبطولات فتغنوا بها ، ولكنهم ضلوا الطريق ، وحرموا العقيدة الموصلة إلى ذلك ، ترى العفة والكرامة من أخلاقهم ، والكرم والشجاعة من سجايهم ، والحمية والثأر تسير في عروقهم ، رضعوا هذا مع لبنهم ، وفطروا ونشأوا عليه ، فهم لا ينامون على ضيم ، ولا يرضون ذلاً أو هواناً ، وويل لمن غضب عليه العرب ، إذ كانوا يثرون لأتفه الأسباب ، يكفي أن يستفز القبيلة فرد أهينت كرامته ، فتنتلق جميعها كباراً وصغاراً تدفع عنه ما أصابه ، لأن كرامة الفرد من كرامة القبيلة ، وإلى هذا يمكننا أن نرد أكثر الغزوات والغارات التي كانت بين القبائل قبل الإسلام .

وقد حفظت ذاكرتهم القوية أشعارهم وأنسابهم التي كانت بمثابة سجل تاريخي لهم ، وكان كل ذلك من المؤهلات التي أعدتهم لحمل الرسالة الإسلامية فيما بعد .

وإذا كان العرب قد عبدوا الأوثان آنذاك ، فإنهم لم يعبدوها على أنها هي الخالقة المدبرة لأموال الكون وشتونه ، بل رأوا فيها التقرب إلى الله :

« ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (١) .

ولم تكن عقائدهم معقدة مركبة ، كما كانت عليه عقائد سكان البلاد المجاورة من الفرس والهند والروم ، بل كانوا أصفياء النفوس ، وبمكنتنا أن نقول : إن عندهم فراغاً عقدياً - إذا صح هذا التعبير - تستره تلك العبادات والمعتقدات الأولية ، التي لم تقف على قدميها أمام عقيدة الإسلام المتأسكة الكاملة ، ولهذا كان العرب يمتازون عن غيرهم من الأمم بتلك الصفات التي أهلهم فيما بعد لأن يكونوا رجال الإسلام ، ومحملة لوائه إلى العالم .

ومع هذا لم يكن من السهل أن يستجيب العرب جميعاً إلى دعوة الرسول الكريم بادئ ذي بدء ، إذ كان من الصعب أن يتركوا دين

آبائهم وأجدادهم ، فإذا ما دعاهم إلى الله قال له أقرب الناس إليه :  
تباً لك ! ! ألهذا دعوتنا ؟ وأوذى صلى الله عليه وسلم في سبيل دعوته  
كثيراً ، وقاسى الصعاب ، ولم يؤمن به إلا نفر قليل : زوجته ، وبعض  
ذويه ، وقليل من أهله . وكان لا يفتر عن دعوتهم ، ويسخرون منه  
فيزداد نشاطاً وحيوية وراء أمه ، ويصورهم الله تعالى في قوله :

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ،  
أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » (١) ، « وإذا قيل لهم تعالوا  
إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان  
آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » (٢) .

إلا أن الباطل لا يقوى أمام الحق ، فسرعان ما يتقوض ، ويظهر  
ضعفه ، كما يتلاشى الظلام حين يكون وراءه النور الساطع .

ومضى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في دعوته ، وصبر الصبر  
الجميل مضطهداً حيناً ، مستهزأً به أحياناً ، ومع هذا كان يتمنى لقومه  
الهداية والرشاد ، فيطيب الله خاطرهم ، ويخفف عنه ، مبيناً أن هدايتهم بيده  
عز وجل ، فيقول :

« إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم  
بالمهتدين » (٣) .

ويصور الله تعالى ضيقه صلى الله عليه وسلم في سبيل هداية  
قومه ، فيقول :

« فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » (٤) .  
ويؤكد له أنه على حق ، ولا بد للحق من أن ينتصر ، فيشجذ عزيمته  
بقوله عز وجل :

« فاستمسك بالذي أوحى إليك ، إنك على صراط مستقيم » (٥) .

(٢) المائدة : ١٠٤ .

(٤) الكهف : ٦ .

(١) البقرة : ١٧٠ .

(٣) القصص : ٥٦ .

(٥) الزخرف : ٤٣ .

وهكذا بدأ الإسلام يستولى على القلوب في مكة رويداً رويداً ، ثم انتشر بين بعض سكان يثرب ( المدينة المنورة ) ، وازداد إيذاء المشركين للمسلمين واضطروهم إلى هجر وطنهم فراراً بدينهم .

وفتحت المدينة المنورة صدرها رحباً للمسلمين ، وبدأت الدولة الإسلامية تنتظم أمورها برياسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتشر خبر الإسلام في أطراف الجزيرة ، ولم تمنع أضراب المشركين العرب من الدخول في دين الله ، دين العدالة والمساواة ، عقيدة سهلة سامية ، إيمان بالله ، وطاعة لرسول الله ، وعبادات تدخل السعادة والطمأنينة إلى النفوس ، نظام يضبط الجماعة ويؤمن حقوق الأفراد . . . كل هذا جعل القبائل العربية تتهافت إلى المدينة من كل حذب وصوب ، يعلنون إسلامهم ، وعم الإسلام الجزيرة العربية بعد الفتح الأكبر ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وانقلبت مكة والمدينة بل الجزيرة العربية إلى موطن إسلامي متماسك تنبع منه أشعة الهداية لتنير العالم .

وقد تم ذلك للرسول الكريم خلال اثنتين وعشرين سنة وبضعة أشهر .

وهكذا خرج العرب باعترافهم هذا الدين الخفيف من نطاق القبيلة الضيق المغلق إلى صعيد الإنسانية الواسع ، ومن إطار الصحراء إلى العالم الشاسع ، وانقلبت رابطة الدم والقرابة إلى الأخوة في الدين ، وانتهى نظام القبيلة وحل مكانه نظام الدولة الإسلامية في مختلف مرافق الحياة ، وانتقلت حميتهم للقبيلة إلى نصرة الحق ، والأخذ بيد المظلوم وإنصافه ، وأصبح اعتزازهم بالإسلام وبما يقدمونه من تضحيات وخدمات في سبيل ذلك بدلا من اعتزازهم بالأنساب ، واتجه حبهم للأمجاد والبطولات صعباً إلى تحقيق ما يرضى الله ورسوله ، وتحولت شجاعتهم وجرأتهم المحصورة في النطاق القبلي إلى شجاعة وجرأة في سبيل نشر الدين الجديد ، وتحول كرمهم الذي بلغ حد السرف إلى إعانة الفقراء وإغاثة الملهوفين ، وتزويد الجيوش للدفاع عن معتقداتهم وعن إخوانهم في الدين ، وتحرير

الأمم من نير العبودية إلى الحرية وعبادة إله واحد . . . فكان الإسلام شرفاً عظيماً لهم ، كما قال تعالى :

« وإنه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسئلون » (١) .

والذكر هو الشرف العظيم ، وكان العرب بحق كما قال الله تعالى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر  
وتؤمنون بالله » (٢) .

يتبين لنا مما ذكرت أن هؤلاء العرب الأشداء ، الذين فرضت عليهم الطبيعة الصحراوية حياة خاصة ، قد انطوت نفوسهم على خصال طيبة ، وصفات كريمة ، وميول سامية ، وراءها دوافع قوية ، وحيوية فائقة ، ولكنه كان ينقصهم العقيدة الصالحة ، التي توجههم في هذه الحياة ، وتؤثر في جميع تصرفاتهم ، كما كان ينقصهم النظام الحسن ، فما أن وجدوهما في الإسلام دين الحنيفية السمحة ، والفطرة الصافية ، حتى كانوا خير حافظ لها ، بعد أن آمنوا بها ، وتجاوبوا معها ، وأصبحوا أول داع إليها ، ومن ثم فتحوا قلوبهم للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، وأصغوا إليه ، والتفوا حوله ينهلون من معين الذي لا ينضب ، ويتلقون تعاليم الإسلام من رانده ، ليقوموا بدورهم في هداية الناس جميعاً ، وهكذا تضافر العامل المنطوي الذي تميز به العرب مع العامل المكتسب الجليد (الروحي) ، فظهر الرعيل الأول الذي حمل مشعل النور والحق إلى العالم ، وساهم في تحرير الإنسان من عبودية الظلم والجهل والفقر ، وأخذ بيده إلى سبيل السداد والرشاد ، ظهر ذلك الرعيل العظيم الذي نقل القرآن الكريم والسنة الطاهرة بكل أمانة وإخلاص .

بعد هذا نتكلم عن السنة وتعريفها ومكانتها من القرآن الكريم ، وعن الصحابة وعدالتهم بما يمهّد لنا السبيل إلى البحث .



## حصول السنة

السنة في اللغة هي السيرة حسنة كانت أو قبيحة ، وكل من ابتدأ  
أمراً عمل به قوم بعده قيل هو الذي سنه . .

قال خالد بن عتبة المسدلي :

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها (١)

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سن في الإسلام  
سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها بعده . من غير أن ينقص من  
أجورهم شيء . ومن سن في الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من  
عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » (٢) .

وإذا أطلقت السنة في الشرع وإنما يراد بها ما أمر به رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، ونهى عنه ، وندب إليه قولاً وفعلاً ، ولهذا  
يقال في أدلة الشرع الكتاب والسنة ، أي القرآن والحديث ، ويطلق علماء  
الحديث لفظ السنة على كل ما يتصل بالرسول صلى الله عليه وسلم  
من سيرة ، وخلق ، وشئائل ، وأخبار ، وأقوال ، وأفعال ، سواء أثبت  
ذلك حكماً شرعياً أم لا .

وأما علماء أصول الفقه فإنهم يطلقون لفظ السنة على أقوال الرسول  
صلى الله عليه وسلم ، وأفعاله . وتقريراته التي تثبت حكماً شرعياً .

وأما علماء الفقه فقد بحثوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ،  
الذي تدل أفعاله على حكم شرعي ، وهم يبحثون عن حكم الشرع في  
أفعال العباد وجوباً ، أو حرمة ، أو إباحة ، أو غير ذلك . فالسنة عندهم  
كل ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن من باب الفرض ولا  
الواجب .

(١) انظر لسان العرب ، مادة ( سنن ) .

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، ص ٧٠٥ ، ج ٢ . وص ٢٠٥٩ ، ج ٤ .

فأوسع الإطلاقات إطلاق المحدثين ، الذين يقصدون بالسنة كل ما أثار عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، أو صفة خَلْقِيَّة ، أو سيرة سواء أكان ذلك قبل البعثة كتحتنه في غار حراء ، أم بعدها ، وسواء أثبت ذلك حكماً شرعياً أم لا .  
والسنة بهذا المعنى مرادفة للحديث النبوي .

أما القول: فهو أحاديثه التي قالها في مختلف المناسبات ، كقوله: «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما بوى . . .» ، وقوله: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» ، وقوله: «لا ضرر ولا ضرار» . وقوله في البحر: «هو الطيور ماؤه الحسل ميتته» .

وأما الفعل فهو أفعاله التي نقلها إلينا الصحابة ، مثل وضوئه ، وأدائه الصلوات الخمس بيناتها وأركانها ، وأدائه صلى الله عليه وسلم مناسك الحج ، وما إلى ذلك .

وأما التقرير فكل ما أقره الرسول صلى الله عليه وسلم ، مما صدر عن بعض أصحابه من أقوال وأفعال ، بسكوت منه وعدم إنكار ، أو بموافقته وإظهار استحسانه وتأييده ، فيحتمل ما صدر عنهم بهذا الإقرار والموافقة عليه صادراً عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك ما أخرجه أبو داود والنسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه خرج رجلاً في سفر وليس معهما ماء ، فحضرت الصلاة : فتيهما صعيداً طيباً ، فصليا ثم وجدا الماء في الوقت ، فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء ولم يعد الآخر ، ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرا ذلك له ، فقال للذي لم يعد : «أصبت السنة» وقال للآخر : «لك الأجر مرتين» .  
وقد تطلق السنة في مقابلة البدعة ، فيقال: «فلان على سنة» إذا عمل على وفق ما عمل عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، سواء أكان ذلك مما نص عليه الكتاب أم لم يكن . ويقال : «فلان على بدعة» إذا عمل على خلاف ذلك .

والبدعة لغة هي الأمر المستحدث ، ثم أطلقت في الشرع على كل ما أحدثته

الناس من قول وعمل في الدين وشعائره مما لم يؤثر عنه صلى الله عليه وسلم . وعن أصحابه : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ » (١) .

وتطلق السنة أحياناً عند المحلثين وعلماء أصول الفقه على ما عمل به الصحابة ، وجد ذلك في الكتاب أو السنة أو لم يوجد . ويحتج لذلك بقوله عليه الصلاة والسلام : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين . تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ » (٢) .

ومن أبرز ما ثبت في السنة بهذا المعنى « سنة الصحابة » حد الخمر ، فتد كان تعزير الشارب في عهده صلى الله عليه وسلم غير محدود ، تارة يضربونه نحو أربعين جلدة . وتارة يبلغون ثمانين . وكذا في عهد أبي بكر ، فلما كان آخر إمرة عمر رضى الله عنه . ورأى الناس في سعة من العيش . وكاد الشرب يشيع بينهم - استشار الصحابة في حد زاجر ، فقال علي : نرى أن تجلدة ثمانين . لأنه إذا شرب سكر ، وإذا سكر هذى . وإذا هذى افترى . وعلى المقترى جلد ثمانين . وقال عبد الرحمن ابن عوف : أرى أن تجعلها كأخف الحدود يعني ثمانين . وأجمع الصحابة على هذا ، فتحديد الثمانين هو السنة التي عمل عليها الصحابة باجتهاد منهم ، حسبما اقتضاه النظر المصلحي .

ومن هذا تضمين الصناع . وجمع المصاحف في عهد أبي بكر برأى الفاروق . وحمل الناس على القراءة بحرف واحد من الحروف السبعة ، وتدوين الدواوين . وما أشبه ذلك مما اقتضاه النظر المصلحي الذي أقره الصحابة رضى الله عنهم وأجمعوا عليه (٣) .

(١) صحيح مسلم ، ص ١٣٤٣ ، ج ٣ .

(٢) أخرجه أبو داود في حديث طويل عن العرياض بن سارية . انظر سنن أبي داود ،

ص ٥٠٦ ، ج ٢ .

(٣) انظر الموافقات للشاطبي ، ص ٤ - ٦ ، ج ٤ . وانظر التمهيد من كتابنا

« السنة قبل التدوين » .

وأعنى بالسنة ما أراداه المحدثون ، وهى ما يرادف الحديث عند جمهورهم وإن كان بعضهم يفرق بين السنة والحديث ، فيرى الحديث ما ينتقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، والسنة ما كان عليه العمل المأثور فى الصدر الأول .

والحديث القدسى هو كل حديث يضيف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً إلى الله عز وجل ، كحديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . . » (١) وحديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال : « إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة » (٢) .

والأحاديث القدسية أكثر من مائة حديث ، وقد جمعها بعضهم فى جزء كبير (٣) . ونسبة الحديث إلى القدس (وهو الطهارة والتزوية) ، وإلى الإله أو الرب ، لأنه صادر عن الله تبارك وتعالى ، المتكلم به أولاً ،

---

(١) الحديث الرابع والعشرون من الأربعين النووية ، وقد أخرجه الإمام مسلم . انظر صحيح مسلم ، ص ١٩٩٥ ، ج ٤ .

(٢) رواه البخارى ومسلم . انظر صحيح مسلم ص ١١٨ ، ج ١ . وانظر الأربعين النووية ، الحديث (٣٧) .

(٣) جمع الشيخ محبى الدين محمد بن على بن العربى الطائى ، المتوفى سنة (٦٣٨ هـ) ، فى كتابه (مشكاة الأنوار) (١٠١) حديث عن الله عز وجل . كما جمع العلامة على بن سلطان الهروى القارى ، المتوفى سنة (١٠١٦ هـ) . أربعين حديثاً قدسياً فى كتابه (الأحاديث القدسية الأربعينية) . وطبع الشيخ محمد راغب الطباخ الحلبي . هذين الكتابين فى مجلد واحد ، سنة (١٣٤٣ - ١٩٢٧ م) .

وأما كونه حديثاً ، فلأن الرسول هو المخبر به عن الله عز وجل ، والحاكي له بلفظه صلى الله عليه وسلم ولغته .

بعد هذا أرى من الواجب أن أبين مكانة السنة من القرآن الكريم ، لتظهر لنا أهميتها بالنسبة للشريعة الإسلامية ومصادرها التشريعية .



## السنة ومكانها من القرآن الكريم

لم يكن للأحكام في عهد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام مصدر سوى الكتاب والسنة . ففي كتاب الله تعالى الأصول العامة للأحكام الشرعية ، دون التعرض إلى تفصيلها جميعها . والتفريع عليها ، إلا ما كان منها متفقاً مع الأصول العامة ثابتاً بثبوتها ، لا يتغير بمرور الزمن . ولا يتطور باختلاف الناس في بيئاتهم وأعرافهم . كل هذا حتى يحقق القرآن الكريم النهضة الإنسانية الشاملة . والرقى الاجتماعى والفكرى . وينشر العدالة والسعادة . في كل زمن . ويبقى صالحاً لكل أمة . مهيماً كانت بيئتها وأعرافها . فتجد فيه ما يكفل حاجتها التشريعية في سبيل النهوض والتقدم . وإلى جانب هذه الأصول في القرآن الكريم نجد العقائد والعبادات وقصص الأمم الغابرة . والآداب العامة والأخلاق . .

وقد جاءت السنة في الجملة موافقة للقرآن الكريم ، تفسر مبهمة ، وتفصل مجمله ، وتقيد مطلقه ، وتخصص عامه ، وتشرح أحكامه وأهدافه ، كما جاءت بأحكام لم ينص عليها القرآن الكريم ، تتمشى مع قواعده . وتحقق أهدافه وغاياته . فكانت السنة تطبيقاً عملياً لما جاء به القرآن العظيم ، تطبيقاً يتخذ مظاهر مختلفة ، فحيناً يكون عملاً صادراً عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وحيناً آخر يكون قولاً يقوله في مناسبة . وحيناً ثالثاً يكون تصرفاً أو قولاً من أصحابه صلى الله عليه وسلم . فبرى العمل أو يسمع القول ثم يقر هذا وذلك ، فلا يعترض عليه ولا ينكره . بل يسكت عنه أو يستحسنه فيكون منه تقريراً .

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين ما جاء في القرآن الكريم . والصحابة يتقبلون ذلك منه . لأنهم مأمورون باتباعه وطاعته . ولم يخطر ببال امرئ منهم أن يترك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فعله . وقد عرفوا ذلك من كتاب الله تعالى . ففيه :

« إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث

فإنما ينكت على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً» (١) ،  
« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا » (٢) ، « من يطع الرسول فقد  
أطاع الله » (٣) ، « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٤) .  
« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم  
حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » (٥) .

وقوله عز وجل :

« وأنزلنا إليك الذِّكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولتلهيهم يتفكرون » (٦) .

فأوكل الله عز وجل بيان أحكام القرآن الكريم إلى رسوله ( صلى الله  
عليه وسلم . وغير ذلك من الآيات الكريمة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه » (٧) ،  
وقال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها ،  
وعضوا عليها بالنواجذ » (٨) . وقد أجمعت الأمة على العمل بسنة الرسول  
الكريم .

فتقبل المسلمون السنة من الرسول صلى الله عليه وسلم كما تقبلوا  
القرآن الكريم ، استجابة لله عز وجل وللرسول الأمين ، لأنها المصدر  
الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم بشهادة الله عز وجل ورسوله . وإذا  
اعتبرنا السنة المصدر الثاني ، إنما نعتبرها من حيث إنها مفسرة لكتاب الله ،  
مفصلة مجمله ، مبينة أحكامه ومتا صده . مفرعة على أصوله وقواعده ،  
لهذا كان الكتاب هو المصدر الأول والسنة هي المصدر الثاني ، ومع هذا  
فإن ما استقلت به السنة من أحكام لم ينص عليها القرآن الكريم ، وليست  
بياناً له ، ولا تطبيقاً مؤكداً لما جاء في كتاب الله — لا تقل في المنزلة عن

(٢) المائة : ٩٢ .

(٤) الحشر : ٧ .

(٦) النحل : ٤٤ .

(١) الفتح : ١٠ .

(٣) النساء : ٨٠ .

(٥) النساء : ٦٥ .

(٧) أخرجه أبو داود في سننه .

(٨) سنن أبي داود ، ص ٥٠٦ ، ج ٢ .

الأحكام التي نص عليها الله عز وجل في القرآن الكريم ، ذلك لأن ما يستنه الرسول عليه الصلاة والسلام لا يكون إلا حقاً ، والله عز وجل لا يقر الرسول صلى الله عليه وسلم على اجتهد خطأ ، بل ينزل الوحي ويصحح له اجتهد ، فكل حكم ثبت من طريق السنة وجب اتباعه . لأنه حكم الله لعباده على لسان رسوله . وقد ثبتت عادة أحكام بالسنة من غير أن ينص عليها الكتاب الكريم ، كتحرим أكل الحُمُر الأهلية . وكل ذى ناب من السباع ، وتحریم نكاح المرأة على عمها أو خالتها (١) . ولم يفكر مسلم في ترك بعضها لأنها لم تذكر في الكتاب ، بل استجاب لذلك جميع المسلمين مطبقين أمر الله عز وجل في اتباع سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي نزل فيه قول الله عز وجل :

« وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى » (٢) .

قال ابن قيم الجوزية : ( وقال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً » (٣) .

فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله ، وأعاد الفعل إعلماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً ، سواء أكان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه ، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه ، ولم يأمر بطاعة أولى الأمر استقلالاً ، بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول ، إيداناً بأنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول . فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع له ولا طاعة (٤) .

(١) انظر الرسالة للإمام الشافعي ، ص ٩٢ وما بعدها ، وأعلام الموقعين ، ص ٢٨٨ - ٢٩٠ ، ج ٢ . وأصول التشريع الإسلامي ، ص ٤٢ وما بعدها . وانظر « موضوع السنة ومكانتها من القرآن الكريم » من كتابنا « السنة قبل التدوين » .

(٢) النجم : ٣ ، ٤ . (٣) النساء : ٥٥ .

(٤) أعلام الموقعين ، ص ٤٨ ، ج ١ .

فالقرآن والسنة مصدران تشريعيان متلازمان ، لا يمكن لمسلم ان يفهم الشريعة إلا إذا رجع إليهما معاً ، ولا غنى لمجتهد أو عالم عن أحدهما ، ولا يجزؤ أن يدعى هذا أسعد .

فقد فرض الله تعالى الصلاة على المؤمنين ، من غير أن يبين أوقاتها وأركانها وعدد ركعاتها ، فبين الرسول الكريم هذا بصلاته ، وتعليمه المسلمين كيفية الصلاة ، وقال : « صلوا كما رأيتموني أصلي » (١) ، وفرض الله عز وجل الحج من غير أن يبين مناسكه ، وقد بين الرسول الأمين كيفيته ، وقال : « خذوا عني مناسككم » (٢) ، وفرض الله تعالى الزكاة من غير أن يبين ما تجب فيه من أموال وعروض وزروع ، كما لم يبين النصاب الذي تجب فيه الزكاة من كل . وأوكل بيانه للرسول الكريم الذي أوضحه وفصله بسنته . وغير ذلك من الأحكام التي بيئتها السنة .

لهذا كله رأينا الصحابة يلتفتون حول الرسول صلى الله عليه وسلم يشاهدون بعيونهم . ويسمعون بأذانهم وتعي قلوبهم ، ويتمسكون بسنته صلى الله عليه وسلم . ولا يفرقون بين ما جاء في القرآن وما جاء في السنة ، وقد امثل الصحابة لأوامر الله عز وجل ورسوله ، ونفذوها مخلصين . وحموا الشريعة بالمال والدماء ، في حياته صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته .

وحافظوا على الكتاب الكريم والسنة الشريفة ، وأبوا أن يكونوا ذلك الرجل الذي ينطبق عليه قوله عليه الصلاة والسلام : « يوشك الرجل متكثراً على أريكته يحدث بحديث من حديثي فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه . وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله » (٣) بل وقفوا من

(١) أخرجه البخارى في حديث ضويل . انظر صحيح البخارى بحاشية السندي ، ص ١٢٥ - ١٢٦ ، ج ١ . وص ٥٢ ، ج ٤ .  
(٢) صحيح مسلم ، ص ٩٤٣ ، ج ٢ . وانظر جامع بيان العلم وفضله ، ص ١٩٠ ، ج ٢ .  
(٣) سنن ابن ماجه ، ص ٦ ، ج ١ . وسنن البيهقي ، ص ٦ ، ج ١ . رواه المقدم ابن معدي كرب .

السنة موقفاً عظيماً ، وردوا على كل من فهم ذلك الفهم . روى أبو نضرة عن عمران بن حصين : « أن رجلاً أتاه فسأله عن شيء ، فحدثه ، فقال الرجل : حدثوا عن كتاب الله عز وجل . ولا تحدثوا عن غيره . فقال : إنك امرؤ أحمق ! ! أتجد في كتاب الله صلاة الظهر أربعاً لا يجهر فيها ، وعد الصلوات ، وعد الزكاة ونحوها . ثم قال : أتجد هذا منسراً في كتاب الله ؟ كتاب الله أحكم ذلك ، والسنة تفسر ذلك » (١) .

ونهج التابعون وأتباعهم والمسلمون من بعدهم سبيل الصحابة في المحافظة على السنة والعمل بها وإجلالها ، قال رجل للتابعي الجليل مطرف ابن عبد الله بن الشخير : لا تحوثنوا إلا بالقرآن . فقال مطرف : « والله ما نريد بالقرآن بدلاً . ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا » (٢) .

وأخبار اقتداء الصحابة بالرسول صلى الله عليه وسلم والمحافظة على سنته تفوق الحصر ، وسأورد بعضها على سبيل الذكرى .

أنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر تطلب سهم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال لها : (إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله عز وجل إذا أطعم نبياً طعمته . ثم قبضه جملة للذي يتوم من بعده » ، فرأيت أن أردده على المسلمين) . فقالت : فأنت وما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم (٣) . وقال في رواية : (لست تاركاً شيئاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به ، وإني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ) (٤) .

وفي وقعة اليرموك كتب القادة إلى عمر بن الخطاب : (إنه قد جاش إلينا الموت) يستمدونه فكان فيما أجابهم : (إني أدلكم على من هو أعز

(١) كتاب العلم للمقدسي ، مخطوطة الظاهرية ، ص ٥١ . وجامع بيان العلم وفضله ،

ص ١٩١ ، ج ٢ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله ، ص ١٩١ ، ج ٢ .

(٣) مسند الإمام أحمد ، ص ١٦٠ ، ج ١ بإسناد صحيح .

(٤) مسند الإمام أحمد ، ص ١٦٧ ، ج ١ بإسناد صحيح .

نصراً ، وأحضر جنداً ، الله عز وجل . فاستنصروه ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم قد نصر يوم بدر في أقل من عدتكم ، فإذا أناكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني ( ١ ) .

ويرى عمر رضى الله عنه الناس قد أقبلوا على طيبات الدنيا مما أحل لهم الله تعالى . فيذكرهم برسولهم صلى الله عليه وسلم ، فيقول : ( لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يلتوى ما يجسد دقلاً مملاً به بطنه ) ( ٢ ) .

وقال سعيد بن المسيب : رأيت عثمان قاعداً في المقاعد ، فدعا بطعام مما مسته النار فأكله ، ثم قام إلى الصلاة فصلى . ثم قال عثمان : قعدت مقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأكلت طعام رسول الله ، وصليت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ( ٣ ) .

وروى الإمام أحمد أن على بن أبى طالب شرب قائماً ، فنظر إليه الناس كأنهم أنكروه ، فقال : ( ما تنظرون ؟ إن أشرب قائماً فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب قائماً ، وإن أشرب قاعداً فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب قاعداً ) ( ٤ ) .

وقد اشتهر عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بمحافظته الشديدة على سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان الرسول أسوته في كل شئ . في صلاته وحججه وصيامه ، وفي جميع أحواله ( ٥ ) ، وكثيراً ما كان يقول :

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » ( ٦ ) .

- ( ١ ) مسند الإمام أحمد ، ص ٣٠٤ ، ج ١ . بإسناد صحيح .
- ( ٢ ) مسند الإمام أحمد ، ص ٣٠٧ و ٢٢٤ ، ج ١ . بإسناد صحيح . والدقل هو ردىء التمر ويابس .
- ( ٣ ) مسند الإمام أحمد ، ص ٣٧٨ ، ج ١ . بإسناد صحيح ، والمقاعد مكان في المسجد كانوا يتوضؤون عنده .
- ( ٤ ) مسند الإمام أحمد ، ص ١٣٠ ، ج ٢ . وص ١٧٩ ، ج ٢ منه أيضاً .
- ( ٥ ) انظر ما روينا عنه في كتابنا « السنة قبل التدوين » في الباب الثانى ، الفصل الأول « اقتداء الصحابة والتابعين بالرسول صلى الله عليه وسلم » .
- ( ٦ ) الأحزاب : ٢١ .

قيل لعبد الله بن عمر : لا نجد صلاة السفر في القرآن ؟ فقال ابن عمر :  
( . . . ) إن الله عز وجل بعث إلينا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولا نعلم  
شيئاً فإنما نفعل كما رأينا محمداً صلى الله عليه وسلم يفعل (١) وفي رواية  
قال : ( وكنا ضلالاً فهدانا الله به ، فبه نتقدي ) (٢) .

والأخبار عن الصحابة والتابعين وأهل العلم من بعدهم كثيرة جداً ،  
نختصها بهذا الخبر ، فقد روى ابن ماجه أن عبادة بن الصامت الأنصاري ،  
التقيب ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم - غزا مع معاوية  
أرض الروم ، فنظر إلى الناس وهم يتبايعون كسّر الذهب بالدنانير ، وكسر  
الفضة بانديراهم ، فقال : ( يا أيها الناس ، إنكم تأكلون الربا ، سمعت  
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تتبايعوا بالذهب بالذهب  
إلا مثلاً بمثل ، لا زيادة بينهما ، ولا نظرة » ، فقال له معاوية : ( يا أبا الوليد..  
لا أرى الربا في هذا إلا ما كان من نظرة ) ، فقال عبادة : ( أحدثك عن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحديثي عن رأيك ، لئن أخرجني  
الله لا أساكنك بأرض لك على فيها إمرة ) . فلما قفل لحق بالمدينة ، فقال له  
عمر بن الخطاب : ( ما أقدمك يا أبا الوليد ؟ فقص عليه القصة ، وما قال  
من مساكنته . فقال : ( ارجع يا أبا الوليد إلى أرضك ، قبّح الله أرضاً لست  
فيها وأمثالك ) ، وكتب إلى معاوية : ( لا إمرة لك عليه ، واحمل الناس على ما  
قال ، فإنه هو الأمر ) (٣) .

أولئك صحابة رسول الله الذين لم يرضوا ترك سنة كان عليها رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، ولم يقبلوا مع السنة رأى أحد مهما كان شأنه ،  
ومهما علت مكانته ، أولئك الذين حفظوا الحديث النبوي ، ووجهوا

(٢١) مسند الإمام أحمد ، ص ٦٨ ، وص ٧٧ ، ج ٨ .

(٣) سنن ابن ماجه ، ص ٧ ، ج ١ . كسر الذهب جمع كسرة ، وهي كالقطة لفظاً

ومعنى . نظرة : انتظار ، أى أجل .

الأمة إلى السبيل القويم ، وحملوا الأمرء على تطبيق أحكام الشريعة ،  
وأبوا أن يماروا في دين الله ، صادعين بالحق ، لا يخافون فيه لومة لأثم .  
وقد كان لهم الفضل الكبير ، والشرف العظيم في حمل أحكام الشريعة  
وحفظها وتبليغها إلى من بعدهم .



## عدالة الصحابة

ولمنزلة الصحابة الكريمة ، وأمانتهم وإخلاصهم ، وحرصهم على الدين وأحكامه ، ودفاعهم عنه . أجمع أهل السنة على عدالتهم وتوثيقهم جميعاً إلا من ظهر منه ما يجرح عدالته ممن لم يستقيموا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة (١) ، فلا يجوز لأحد أن يتعداهم خشية أن يخالف الكتاب والسنة اللذين نصا على عدالتهم جميعاً .

قال ابن حزم : ( نقول بفضل المهاجرين الأولين بعد عمر بن الخطاب . . ثم بعد هؤلاء أهل العقبة - الأنصار الذين بايعوه بيعة العقبة - ثم أهل بدر ثم أهل المشاهد مشهداً مشهداً ، وأهل كل مشهد أفضل من المشهد الذي بعده حتى يبلغ الأمر إلى الخديبية ، فكل من تقدم ذكره من المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم إلى تمام بيعة الرضوان فإننا نقطع على غيب قلوبهم أنهم كلهم مؤمنون صالحون . ماتوا كلهم على الإيمان والهدى والبر ، كلهم من أهل الجنة . لا يلج أحد منهم النار ) (٢) .

وقال شارح مسلم الثبوت : ( إن عدالة الصحابة مقطوعة لا سيما أصحاب البدر ، وبيعة الرضوان كيف لا وقد أثنى عليهم الله تعالى في مواضع عديدة من كتابه ، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فضائلهم غير مرة ) (٣) .

وقد ورد في الصحابة ما يوجب لهم العدالة ، ويجعلهم في ذروة الثقة والاثمان ، فقد زكاهم الله تعالى ورسوله . وتقبات الأمة ذلك بالإجماع ، من هذا قوله عز وجل :

(١) انظر «الروض الباسم» ص ١٢٨ - ١٣٠ ، ج ١ . حيث ذكر بعض من جرح من الصحابة وبين وجه الحق في عدالتهم . وراجع «العواصم من القواصم» لابن العربي ، فإنه تناول أحوال الصحابة وفند بعض الأقوال والطعون ، ووضح ما قيل فيهم ، وأثبت براءتهم . وانظر «العلم الشامخ» ، ص ٣٠٦ وما بعدها .

(٢) ابن حزم ، حياته وعصره وآراؤه الفقهية لأبى زهرة ، ص ٢٥٩ .

(٣) شرح مسلم الثبوت ، ص ٤٠١ ، ج ٢ .

« محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيّاهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعاد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا » (١) .

وقوله عز وجل :

« والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ، ذلك الفوز العظيم » (٢) .

وقوله عز وجل :

« والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حَقًّا ، لهم مغفرة ورزق كريم » (٣) .

وقال تعالى :

« لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » (٤) .

تلك آيات كريمة تشهد بفضل ومكانة جميع الصحابة ، وهناك آيات أخرى تذكر فضلهم في كثير من المواقف : في الهجرة والجهاد والبيدل والغزوات . وإن هذه وتلك أدلة قطعية تنص على عدالتهم ، لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه ، فهمل بعد ذلك نطلب رضاء الناس عنهم وتعديلتهم إياهم ؟ . وأدلة عدالة الصحابة من السنة كثيرة تشهد بفضلهم جملة وآحاداً . وقد أفردت كثير من كتب السنة أبواباً خاصة في فضل الصحابة .

من ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا أحداً من أصحابي ، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه » (٥) .

(٢) التوبة : ١٠٠ .

(١) الفتح : ٢٩ .

(٤) الفتح : ١٨ .

(٣) الأنفال : ٧٤ .

(٥) صحيح مسلم ، ص ١٩٦٨ ، ج ٤ .

ومنها ما رواه عبد الله بن مغفل وأخرجه الترمذى وابن حبان فى صحيحه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله الله فى أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعدى ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » .

وغير ذلك من الأحاديث التى تدل على أفضليتهم كقوله صلى الله عليه وسلم : « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب » وهو حديث صحيح . وفى رواية : « خير الناس » .

فبعد تعديل الله تعالى ورسوله للصحابة . وإجماع الأمة على عدالتهم لا يحتاج أحد منهم إلى تعديل أحد ، على أنه لو لم يرد من الله تعالى ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام شىء فى تعديلهم لوجب تعديلهم لما كانوا عليه من دعم الدين والدفاع عنه ، ومناصرتهم للرسول صلى الله عليه وسلم والهجرة إليه ، والجهاد بين يديه ، والبذل السخى من الأموال والأرواح فى سبيل الله والمحافظة على الدين ، والتشدد فى امتثال أوامر الله تعالى ورسوله . واندفاعهم العظيم بصدق وإخلاص وتضحية وجرأة فى سبيل ذلك . فإبراهيم يوم بدر يقتحمون الموت . ويتسابقون لتنفيذ أوامر القائد العظيم محمد صلى الله عليه وسلم ، من هذا قول سعد بن عباد الأنصارى : ( يا رسول الله ! والذى نفسى بيده ! لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها (١) ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد (٢) لفعلنا ) (٣) . فقد بذلوا نفوسهم للذود عن حياض الإسلام ، وفدوا الرسول صلى الله عليه وسلم بأرواحهم . فإذا ما نزل بهم الخطب فى غزوة أحد رأيناهم يتسابقون للدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذا أبو دجاجة يجعل ظهره ترساً لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أثختته الجراح ، وإلى جانبه

(١) أى لو أمرتنا أن نخوض البحر ونميره بخيولنا لفعلنا .  
(٢) برك الغماد : موضع وراء مكة بخمس ليال بناحية الساحل . انظر هامش صحيح مسلم ، ص ١٤٠٤ ، ج ٣ .  
(٣) صحيح مسلم ، ص ١٤٠٣ ، حديث ٨٣ ، ج ٣ . ( كتاب الجهاد ) ( غزوة بدر ) .

على يذب عنه بسيفه ، وسعد بن أبي وقاص يرمى بقوسه حتى كتب لهم النصر . . .

فكانوا الأبطال الشجعان في ساحات الوغى ، والإخوان الأتقياء  
الرحماء في ميادين الحياة ، وصدق فيهم قوله تعالى :

« محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم  
ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » (١) .

أولئكم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين علت  
نفوسهم ، وصفت قلوبهم ، وسمت مثلهم ، بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان ،  
فحافظوا على الشريعة بكل ما أوتوا من قوة ، سرّاً وعلانية حتى إنا نرى  
بعض من أخطأ منهم كان يقدم نفسه للرسول صلى الله عليه وسلم لينال  
جزاءه في الدنيا قبل الآخرة ، من ذلك ما رواه الإمام مسلم بسنده عن بريدة  
قال : ( جاء ماعز بن مالك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :  
يا رسول الله . . . طهرني . فقال : « ويحك (٢) ! ارجع فاستغفر الله وتب  
إليه » قال : فرجع غير بعيد . ثم جاء فقال : يا رسول الله . . . طهرني .  
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويحك ! ارجع فاستغفر الله وتب  
إليه » قال فرجع غير بعيد . ثم جاء فقال : يا رسول الله . . . طهرني . فقال النبي  
صلى الله عليه وسلم مثل ذلك . حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله  
صلى الله عليه وسلم : « فيم أطهرك ؟ » فقال : من الزنا ، فسأل رسول  
الله صلى الله عليه وسلم : « أبه جنون ؟ فأخبر أنه ليس بمجنون .  
فقال : « أشرب خمرآ ؟ فقام رجل فاستنكهه (١) ، فلم يجد منه ريح خمر .  
قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أزنيت ؟ » فقال : نعم .  
فأمر به فرجم . . . ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم جلوس ،  
فسلم ثم جلس : فقال : « استغفروا لماعز بن مالك » قال : فقالوا : غفر  
الله لماعز بن مالك . قال . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) الفتح : ٢٩ .

(٢) ويح : كلمة ترحم وتوجع ، تقال لمن وقع فيهلكة لا يستحقها .

(٣) فاستنكهه ، أى شم رائحة فمه . من النكهة ، وهى رائحة الفم .

« لقد تاب توبه لو قسمت بين أمة لوسعتم » (١) . تلك هي القلوب المؤمنة ، والنفوس الطيبة الطاهرة ، التي تحرص على حفظ الشريعة وتطبيقها ، مهما تكن نتيجة ذلك .

هؤلاء هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين حفظ لهم التاريخ مآثر خالدة أبد الدهر ، وإن رجالاً أوتوا من العزيمة والقوة والتضحية ، والورع والتقوى ما عرفنا - جديرون بكل احترام وحب وتقدير . بل إن حبهم واحترامهم واجب على كل مسلم لما جاء فيهم من آيات كريمة وأحاديث شريفة ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

قال عبد الله بن مسعود : ( من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالاً ، قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم ) (٢) .

وقال التابعي الجليل إبراهيم بن يزيد النخعي : ( لو أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يمسحوا إلا على ظفر ما غسلته التماس الفضل ، وحسبنا من إزراء على قوم أن نسأل عن فقههم ونخالقهم ) (٣) .  
وقد أجمع السلف والخلف من الأمة الإسلامية على فضل وإخلاص وأمانة الصحابة وعدالتهم ، وأختتم الكلام في عدالة الصحابة جميعاً بقول الحافظ أبي زرعة الرازي : ( إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول حق والقرآن حق ، وما جاء به حق ، وإنما أدى ذلك كله إلينا الصحابة ، وهؤلاء الزنادقة يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبتلوا الكتاب والسنة ، والجرح جرم أولي ) (٣) .



- (١) صحيح مسلم ، ص ١٣٢١ ، حديث ٢٢ ، ج ٣ .
- (٢) الموافقات ٧٨ - ٧٩ ، ج ٤ .
- (٣) انظر ترجمة إبراهيم النخعي في كتاب « السنة قبل التدوين » .
- (٤) الكفاية ، ص ٤٩ . وللإستزادة راجع ( عدالة الصحابة ) في كتابنا « السنة قبل التدوين » . حديث بسطنا القول ، ورددنا على من ادعى غير ذلك .

### حفظ السنة وانتشارها

لقد نزل القرآن الكريم منجماً على محمد صلى الله عليه وسلم خلال ثلاثة وعشرين عاماً ، والرسول الأمين يبلغ قومه ومن حوله ، يبين أحكام القرآن ، ويوضح آياته ، ويفصل تعاليم الإسلام ، ويطبق نظامه ، فكان معلماً وحاكماً وقاضياً ومفتياً وقائداً طيلة حياته عليه الصلاة والسلام ، كان المرجع الأول والأخير في جميع أمور الأمة وأحوالها ، فكل ما يتعلق بالأمة الإسلامية في جميع شؤونها ، دقيقها وعظيمها ، وكل ما يتناول الفرد والجماعة في مختلف نواحي حياتهم ، مما لم يرد في القرآن الكريم فهو من السنة ، العممية أو القولية أو التقريرية ، ومن ثم نجد بين يدينا أحكاماً وآداباً وعبادات وقربات شرعت وطبقت خلال ربع قرن ، فلم توضع السنة دفعة واحدة - كما يتصور بعضهم - كمجموعة من الشرائع الوضعية ، أو الأحكام الخلقية ، التي يملها بعض الحكماء والوعاظ ، وإنما شرعت لتربية الأمة دينياً واجتماعياً وخلقياً وسياسياً في السلم والحرب ، في الرجاء والشدة ، وتتناول النواحي العلمية والعقدية ، فلم يكن من السهل أن يتقلب الناس آنذاك فجأة ، ويتحولوا بين عشية وضحاها عن تعاليمهم القديمة ، وديانتهم وعاداتهم وتقاليدهم إلى الإسلام في نظمه وعقائده وتعاليمه وعباداته .

لقد تدرج القرآن الكريم في انتزاع العقائد الفاسدة والعادات الضارة المستحكمة ، ومحاربة المنكرات التي كان عليها الناس في الجاهلية ، وثبت بالتدرج أيضاً العقائد الصحيحة ، والعبادات والأحكام ، ودعا إلى الآداب السامية ، والأخلاق الفاضلة الحميدة ، وشجع الذين تنفوا حول الرسول صلى الله عليه وسلم على الصبر والثبات ، وفي هذا كله كان الرسول الكريم يبين القرآن ويفتي الناس ، ويفصل بين الخصوم ، ويقيم الحدود ، ويطبق تعاليم القرآن ، وكل ذلك سنة .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد اتخذ دار الأرقم مقرراً له ولأصحابه حين كانت الدعوة سرية ، وفيها تلقى المسلمون تعاليم الإسلام الأولى ، وحفظوا ما تنزل من القرآن ، ثم ما لبث أن أصبح منزل الرسول

صلى الله عليه وسلم في مكة معهد المسلمين الذي يتلقون فيه القرآن الكريم ،  
ويهلون من معين السنة على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان الصحابة يستظهرون آيات القرآن ، ويتدارسونها فيما بينهم ،  
ليثبتوا ما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد يتذكرون  
تفسير ما تلقوه ، وما تفسيره إلا شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وهو الحديث . فحفظ الحديث النبوي كان متمشياً جنباً إلى جنب مع حفظ  
القرآن الكريم من الأيام الأولى لظهور الإسلام .

ثم أصبح المسجد فيما بعد المكان المعهود للعلم والفتوى والقضاء ،  
إلى جانب العبادة وإقامة الشعائر الدينية ، وعرض الأمور العامة على المسلمين .  
واستنفار الجيوش ، واستقبال الوفود .

ومع هذا لم يقتصر تبليغ الرسول صلى الله عليه وسلم على مكان محدود  
ولا على مناسبة معينة ، فقد كان يستفتى في الطريق فيفتى ، ويسئل في  
المناسبات فيجيب ، يبلغ الأحكام في كل فرصة تسنح له ، وفي كل مكان  
يتسع لذلك .

وإلى جانب هذا كانت له مجالس علمية كثيرة ، يتخول فيها أصحابه  
بالموعظة ، فإذا جلس جلس إليه أصحابه حلقاً حلقاً (١) وعن أنس بن مالك  
رضي الله عنه قال : « . . إنما كانوا إذا صلوا الغداة قعدوا حلقاً حلقاً ،  
يقرأون القرآن ، ويتعلمون الفرائض والسنن » (٢) . ولم يكن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ضئيلاً بالعلم على أصحابه ، بل كان يكثر مجالستهم ،  
يعلمهم ويزكهم .

وكان الرسول الكريم مثالا رائعا في تربية الأمة ، يخاطب الناس بما  
يلزمونه ، يفهم البدوي الجاني بما يناسب جفائه وقسوته ، ويفهم الحضري  
بما يلائم حياته وبيئته ، كما كان يراعى تفاوت المدارك ، وانتباه أصحابه ،  
وقدرهم الفطرية والمكتسبة ، ويستعمل من الأساليب النظرية والعملية

ما يحقق مقاصد رسالته . والأخبار في هذا كثيرة جداً منها : أن فتى من قريش أتى النبي صلى الله عليه وسلم : فقال : يا رسول الله ائذن لي في الزنا ، فأقبل القوم عليه وزجروه ، فقالوا : مه مه !! فقال صلى الله عليه وسلم : ادنه ، فدنا منه قريباً . فقال : أتخبه لأملك ؟ قال : لا والله ، جعلني الله فداك . قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم . قال : أفتخبه لابنتك ؟ قال : لا والله يا رسول الله ، جعلني الله فداك . قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم . ثم ذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم أخته وعمته ونخلته ، وفي كل هذا يقول الفتى مقالته : ( لا والله يا رسول الله ، جعلني الله فداك ) ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده عليه وقال : « اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصن فرجه » قال الراوى : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء (١) .

لقد اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلوباً جعل الفتى يدرك أثر الزنا في المجتمع ، وكيف أن الناس جميعاً لا يرضونه لأنفسهم وأهلهم كما أنه لا يرضاه هو لذويه ، مما حمّله على الاقتناع بالإقلاع عنه . وخير الأمور ما كان الدافع إليه من قرارة النفس .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى التيسير دائماً ، وينهى عن التنطع في العبادة ، والتضييق في الأحكام ، وكان في معاملته للمسلمين جميعاً أخاً رحيماً ، ومعلماً متواضعاً حليماً ، ويظهر ذلك واضحاً من تتبع سيرته عليه الصلاة والسلام . عن السيدة عائشة رضيت الله عنها قالت : ( ما خير بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه . وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها ) (١) .

بهذه الروح الطيبة ، والنفس السامية ، والصدر الرحب ، والمنهج التربوي الصحيح كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه

(١) مجمع الزوائد ، ص ١٢٩ ، ج ١ .

(٢) فتح الباري ، ص ٣٨٥ - ٣٨٦ ، ج ٧ .

والمسلمين عامة أحكام الإسلام وتعاليمه وآدابه ، ولم يكن بين الرسول الكريم والمسلمين حاجب كالمملوك والقياصرة ، بل كان المسجد معهده يعلم فيه المسلمين الشريعة ، وقد يرونه في الطريق فيسألونه ، فيبش لهم ويجيبهم ، وقد يعترضونه في مناسكه وحجه ، أو على راحلته ، يستفتونه فيفتهم ، والابتسام لا تفارق ثغره ، وقد تكون إجابته لسائل عن مسألة وحوله جمع قليل أو كثير ، وقد يكون على منبر مسجده يبلغ الناس الإسلام وتعاليمه ، ويفصل الأحكام ويشرحها . . . فينقل السامعون ما تلقوه إلى إخوانهم وذويهم . . . فإن من سمع وشاهد ووعى ستبقى آثار ما تلقاه واضحة جلية في نفسه أمدأ طويلا ، حتى إذا ما شك فيما سمع عاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليزيل وهمه ، ويثبتته على الصواب ، ويرده إلى الحق .

وقد حرص الصحابة على مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأقبلوا على تلقى السنة وتطبيقها من قلوبهم صادقين مخلصين ، بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان ، وعرفوا عظمة الإسلام ، ورأوا في القرآن المعجزة الكبرى والهداية العظمى ، فامتألت قلوبهم حباً لله ورسوله ، وتفانوا في سبيل دينهم ومبادئهم وحماية قائدهم ومعلمهم ، وأخبار بذمهم وفدائهم تكلل جبين التاريخ وتزينه ، وإن التاريخ ليحفظ تلك المفاخر الخالدة من التضحيات العظيمة النادرة .

بهذه القلوب التي امتألت بالإيمان . وهذه الروح السامية والحيوية الدائمة أقدم الصحابة على تلقى العلم عن رسول الله الكريم ، فكانوا يتعلمون من النبي صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم آيات معدودات : يتفهمون معناها ، ويتعلمون فتمها ، ويطبّقونه على أنفسهم ، ثم يحفظون غيرها ، وفي هذا يقول أبو عبد الرحمن السلمي : ( حدثنا الذين كانوا يقرؤنا القرآن - كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما - أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات ، لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل . . . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً ) وكان الصحابة يحرصون على حضور مجالس رسول الله صلى الله عليه

وسلم حرصاً شديداً ، إلى جانب قيامهم بأعمالهم المعاشية من الرعاية والتجارة وغيرها ، وقد يصعب على بعضهم الحضور دائماً ، فيتناوبون مجالسه عليه الصلاة والسلام ، كما كان يفعل ذلك عمر رضی الله عنه ، قال : (كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية ، وهي من عوالى المدينة ، وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل يوماً ، وأنزل يوماً ، فإذا نزلت جئته بنجر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك . . .) (١) .

ولم يقتصر تعليمه صلى الله عليه وسلم على الصحابة وحدهم ، بل كان يعلم النساء أمور دينهم ، ويعقد لهن مجالسهن ، ولم يكن ذلك صدفة أو نادراً ، بل خصص لهن أوقاتاً خاصة يجلسن فيها إليه ويتلقين عنه تعاليم الإسلام ، ويسألنه فيجيبهن ، وفي هذا قالت عائشة رضی الله عنها : ( نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين ) (٢) .

وكان بعض الوفود يقيم عند الرسول صلى الله عليه وسلم ، يتعلمون أحكام الإسلام وعباداته ، ثم يعودون إلى أقوامهم يعلمونهم ويفقهونهم ، من هذا ما أخرجه البخارى عن مالك بن الحويرث قال : ( أتينا النبي صلى الله عليه وسلم ونحن شعبة متقاربون ، فأقمنا عنده عشرين ليلة ، فظن أننا أشتقنا أهلنا ، وسألنا عن تركنا في أهلنا ، فأخبرنا ، وكان رفيقاً رحباً ، فقال : « ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم ومروهم ، وصلوا كما رأيتموني أصلي ، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ثم ليؤمكم أكبركم » (٣) .

إن مثل هؤلاء الوافدين الذين أقاموا أياماً خالدة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يمكن أن ينسوا ما تلقوه منه ، بل سيبقى ذلك ثابتاً قوياً في نفوسهم طوال حياتهم .

(١) فتح البارى ، ص ١٩٥ ، ج ١ .

(٢) فتح البارى ، ص ٢٣٩ ، ج ١ .

(٣) صحيح البخارى بحاشية السندي ، ص ٥٢ ، ج ٤ .

وإلى جانب هذه الوفود وتلك المجالس ، كان المسلمون يتلقون السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجوه عدة . منها أن بعض الحوادث كانت تقع للرسول صلى الله عليه وسلم فيبين حكمها ، وينتشر هذا الحكم بين المسلمين ؛ وبعض الحوادث كانت تقع للمسلمين فيسألون الرسول الأمين عنها فيجيبهم ، ومن هذه الحوادث ما يتناول خصوصيات السائل نفسه ، ومنها ما يتعلق بغيره ، وجميعها من الوقائع التي تعرض للإنسان في حياته فترى الصحابة لا يخلطون في ذلك كله ، بل يسرعون إلى رائدهم ومربيهم ليقفوا على حقيقة تطمئن قلوبهم إليها .

إن هؤلاء الصحابة الذين كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمورهم الشخصية التي قد يخلط منها غيرهم ، كانوا لا يجمعون عن سؤاله في معاملاتهم وعباداتهم وعقائدهم وسائر أمورهم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيبهم على أسئلتهم هذه كلها ويحكم بينهم ، ويبين لهم الحق ، وفي تلك الأجوبة والفتاوى والأقضية مادة كثيرة في مختلف أبواب كتب السنة ، وهي تؤلف جانباً كبيراً من الحديث النبوي . ويبعد أن ينسى هذه الحوادث من وقعت له وسأل عنها النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنها جزء من حياة السائل ، بل واقعة بارزة من وقائع عمره .

وهناك وقائع شاهد فيها الصحابة رضوان الله عليهم تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم ، في صلاته وصيامه وحججه وسفره وإقامته ، فنقلوها إلى التابعين الذين بلغوها إلى من بعدهم ، وهي تؤلف جانباً عظيماً من السنة ، وخاصة هديه صلى الله عليه وسلم في العبادات والمعاملات وسيرته . . .

مما سبق اتضح لنا كيف تلقى المسلمون السنة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعرفنا الروح التي شملتهم ، والدوافع القوية التي حثتهم على تلقي القرآن والسنة وحفظهما ، مما يسمح لنا أن نقول - ونحن واثقون مطمئنون - :

إن السنة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانت محفوظة عند الصحابة جنباً إلى جنب مع القرآن الكريم ، وإن كان نصيب كل صحابي منها مختلف عن نصيب الآخر ، فمنهم الكثير من حفظها ، ومنهم المقل ، ومنهم المتوسط في ذلك ، ومن ثم نستطيع تأكيد أنهم قد أحاطوا بالسنة ، وتكلفوا بنقلها إلى التابعين الذين نقلوها إلى من بعدهم طبقاً لقوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ ، وَيُسْمَعُ مِنْ يَسْمَعُ مِنْكُمْ » (١) .

وقد انتشرت السنة في عهده صلى الله عليه وسلم ، بما كان له من جد ونشاط في تبليغه ، وبواسطة أصحابه ، ولا ننس أثر أمهات المؤمنين في نشر السنة بين النساء ، وأثر بعوثه وولاته ورسله ، وما كان لغزوة الفتح من أثر بعيد في نشر بعض السنن ، ثم ما كان لحجة الوداع من أثر عظيم وبعيد في نشر كثير من الأحكام والسنن ، كما انتشرت السنة بواسطة الوفود الكثيرة التي قدمت بعد الفتح الأعظم وحجة الوداع . كل تلك العوامل كفيلاً بنشر السنة وتبليغها للمسلمين في مختلف أرجاء الدولة الإسلامية آنذاك (٢) ولم ينتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن انتشر الإسلام في الجزيرة العربية كلها ، وساد ربوعها ، وملا القرآن والسنة صدور أهلها . مصداقاً لقوله عز وجل :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » (٣) .

وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم حرص الصحابة والتابعون على الاقتداء بالرسول والتمسك بسنته ، وقوفاً عند وصيته عليه الصلاة والسلام : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتي » واحتاطوا في رواية الحديث ، وتبعوا آثار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبوا أن يخالفوها متى ثبتت عندهم ، كما أبوا أن ينحرفوا عن شيء ، فارقهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . واتبعوا كل سبيل يحفظ السنة المطهرة من الخطأ أو التحريف ، فأثروا الاعتدال في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتشدد عمر رضي الله عنه في هذا خشية الخطأ ،

(١) مسند الإمام أحمد ، ص ٧٤ ، ج ٢ .

(٢) لقد فصلنا القول في هذا في كتابنا « السنة قبل التدوين » .

(٣) المسألة : ٣ .

لهذا نرى بعضهم - مع كثرة تحملهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم - لا يكثر من الرواية آنذاك ، وكانوا يتورعون من الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكثيراً ما كان بعضهم تغرورق عيونهم بالدموع عندما يقولون : ( قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ) ، وكثيراً ما كانوا يقولون بعد الحديث ( أو كما قال ) ، قال عبد الرحمن بن أبي ليلى : ( أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ما منهم أحد يحدث بحديث إلا ود أن أخاه كفاه إياه ، ولا يستفتى عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه إياه ) وفي رواية : ( يسئل أحدهم المسألة فيردها هذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول ) (١) .

هكذا تشدد الصحابة في الحديث ، وأمسك بعضهم عن روايته كراهية التحريف ، أو الزيادة والنقصان في الرواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن كثرة الرواية كانت في نظر كثير منهم مظنة الوقوع في الخطأ ، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد نهى رسول الله عن الكذب عليه ، وعن رواية ما يرى أنه كذب ، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « من كذب على فليتبوأ مقعده من النار » ، وفي رواية : « من كذب على فليتبوأ مقعده من النار » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « من روى عني حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » (٢) .

وكان الصحابة يخشون أن يقعوا في الكذب عامة ، فكيف يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ..

وفي هذا يقول الإمام على رضي الله عنه : ( إذا حدثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً ، فلأن أخطر من السماء أحب إلى من أن أكذب عليه . . . ) (٣) .

وقد طبع جميع الصحابة هذا المنهج ، حرصاً منهم على حفظ القرآن والسنة ، ومخافة أن يشغل الناس برواية الحديث عن القرآن الكريم ، وهو

(١) مختصر كتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول ، ص ١٣ .

(٢) مقدمة التمهيد لابن عبد البر ، ص ١١ .

(٣) مسند الإمام أحمد ، ص ٤٥ ، ج ٢ .

دستور الأمة ، فأرادوا أن يحفظ المسلمون القرآن جيداً ، ويعتنوا بالحديث الشريف الذى لم يكن قد دون كله فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كالقرآن الكريم ، فنهجوا منهج التثبت العلمى ولم يكثروا من الرواية مخافة الوقوع فى الخطأ ، وقد تشدد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى تطبيق هذا المنهج ، وعرف إتقان بعض الصحابة وحفظهم الجيد فسمح لهم بالتحديث .

ويجب ألا يفهم من هذا أن الصحابة امتنعوا عن رواية الحديث ، أو عن تليغته ، إنما أبوا أن يكثروا من الرواية عند عدم الحاجة ، ومفهوم أنه لا يكون إكثار إلا عند عدم الحاجة إلى الإكثار . فكانوا جميعاً يثبتون فى الحديث ، ويتأثون فى قبول الأخبار وأدائها ، وكانوا لا يحدثون بشيء إلا وهم واثقون من صحة ما يروون ، وقد حرصوا على المحافظة على الحديث بكل وسيلة تفضى إلى ذلك ، فاتبعوا منهجاً سليماً يمنع الشوائب من أن تدخل السنة النبوية فتفسدها . وقد اهتموا اهتماماً كبيراً بالسنة النبوية ونشرها ، وإن الأخبار التى تروى عنهم فى هذا الشأن كثيرة جداً ، فكان يسأل بعضهم بعضاً عن الحديث ويرحلون من أجله ، قال ابن عباس : (إنه كان يبلغنى الحديث عن الرجل ، فآته بابه وهو قائل (١) ، فأتوسد رداً على بابه ، تسقى الريح على من التراب ، فيخرج فيقول : يا ابن عم رسول الله ما جاء بك ؟ ألا أرسلت إلى فأتيتك ؟ فأقول : أنا أحق أن آتيتك ، فأسأله عن الحديث . . . ) (٢) .

وروى بعض الصحابة عن ، نعض ولم يكتفوا بدراسة الحديث فيما بينهم ، بل حثوا على طلبه وحفظه وحضوا التابعين على مجالسة أهل العلم والأخذ عنهم ، ولم يتركوا وسيلة لذلك إلا أفادوا منها . من هذا ما روى عن عمر رضى الله عنه قال : (تفقهوا قبل أن تسودوا) (٣) وقال : (تعلموا الفرائض والسنة كما تتعلمون القرآن) (٤) .

- 
- (١) أى وهو فى نوم الظهيرة ، من القيلولة والغائلة .
  - (٢) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ، ص ٢٤ ، ج ١ . وانظر ص ٢٤ : ب منه .
  - (٣) فتح البسارى ، ص ١٧٥ ، ج ١ .
  - (٤) جامع بيان العلم وفضله ، ص ٣٤ ، ج ٢ .

وكان أبو ذر مثلاً رائعاً لنشر الحق وتبليغ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى البخارى بسنده عنه أنه قال : ( لو وضعتم الصمصامة - السيف الصارم - على هذه - وأشار إلى قفاه - ثم ظننت أنى أنفذ كلمة سمعتها من النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن تجيزوا على لأنفذتها ) (١) ، وما كان أبو ذر بدعاً في الصحابة ، إنما كان أحد الألواف الذين ساهموا في حفظ السنة ونشرها . وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب : ( تراوروا وتذاكروا الحديث ، فإنكمم لإاتفعلوا يدرس ) (٢) .

ووقف عمرو بن العاص على حلقة من قریش فقال : ( ما لكم طرحتم هذه الأغليمة ؟ لا تفعلوا ، وأوسعوا لهم في المجلس ، وأسمعوهم الحديث ، وأفهموهم إياه ، فإنهم صغار قوم أو شك أن يكونوا كبار قوم ، وقد كنتم صغار قوم فأنتم اليوم كبار قوم ) (٣) .

وازداد النشاط العلمى في عصر الصحابة والتابعين ، وانتشرت حلقات العلم في جميع المساجد ، في مختلف الأمصار الإسلامية ، حتى إن حلقات أنى الدرداء في جامع دمشق كانت تضم نيفاً وخمسة ألاف طالب (٤) ، قال أنس بن سيرين : ( قدمت الكوفة قبل الجماجم ، فرأيت بها أربعة آلاف يطلبون الحديث ) (٥) ، وزاد في رواية فقال : ( وأربعمائة قد فقهاوا ) (٦) . كما كانت حلقات العلم تعقد في حمص وحلب والنسقاط والبصرة والكوفة واليمن ، إلى جانب حلقات ينبوع الإسلام في مكة والمدينة ، فقد كانت في المدينة كالروضة يختار منها طالب العلم ما يشاء (٧) .

- (١) فتح البارى ، ص ١٧٠ ، ج ١ .
- (٢) شرف أصحاب الحديث ، ص ٩٩ .
- (٣) شرف أصحاب الحديث ، ص ٨٩ : ب .
- (٤) التاريخ الكبير ( تهذيب ) لابن عساكر ، ص ٦٩ .
- (٥) المحدث الفاصل ، ص ٨١ : أ . ووقعة الجماجم مشهورة ، كانت بين الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث سنة ( ٥٨٢ ) ، وفيها قتل عبد الرحمن وكثير من القراء . انظر تاريخ الطبرى ١٥٧/٥ ، ودير الجماجم بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها ، على طرف البر للسالك إلى البصرة . معجم البلدان ١٣١/٤ .
- (٦) المحدث الفاصل ، ص ١٣٥ : ب .
- (٧) انظر المحدث الفاصل ، ص ٩ : ب .

وكان التعاليم في تلك الحلقات يعتمد على أسس تربوية هامة ، تعتبر من أبرز الأسس في التربية الحديثة (١) . ثم ما لبثت أن ظهرت دور الحديث في العصور التالية ، في معظم البلدان الإسلامية .

وفي عهد التابعين وأتباعهم ازداد النشاط العلمي لانتشار الصحابة في الأمصار الإسلامية ، ثم ما لبث التابعون أن تصدروا للرواية ، وسلكوا سبيل الصحابة ، وساروا على نهجهم ، فكانوا على جانب عظيم من الورع والتقوى ، وليس بعيداً ما نقول لأنهم تخرجوا في مدارس الصحابة تلامذة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وثبتوا في قبول الحديث وروايته ، وكانت أمامهم عيونهم وصية الصحابة وكبار التابعين « إن هذا الحديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » ، ولهذا كانوا يرون الأمانة في الذهب والفضة أيسر من الأمانة في الحديث . فنسمع سليمان بن موسى يقول لطاوس : ( إن رجلاً حدثني بكيت وكيت ، فيقول له : إن كان ملياً فخذ منه ) (٢) وكان ابن عون يقول : ( لا يؤخذ هذا العلم إلا ممن شهد له بالطلب ) (٣) . وكان يزيد بن أبي حبيب يحدث الديار المصرية يقول : ( إذا سمعت الحديث فانشده كما تنشد الضالة ، فإن عرف فخذ ، وإلا فدعه ) (٤) .

وكانوا لا يأخذون الحديث إلا عن العدول الثقات ، ولا يأخذون الحديث عن غير أهلهم . ولا عمن لا يعرف ما يروى ، قال الإمام مالك : ( لا يؤخذ العلم عن أربعة . ويؤخذ من سوى ذلك : لا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ، ولا من سفيه معلم بالسفه ، وإن كان من أروى الناس ، ولا من رجل يكذب في أحاديث الناس وإن كنت لا تهتمه أن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من رجل له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث ) (٥) وقال الإمام الشافعي :

(١) انظر : النشاط العلمي في عصر الصحابة والتابعين في كتابنا « السنة قبل التدرين » .

(٢) الجرح والتعديل ، ص ٢٧ ، ج ١ .

(٣) الجرح والتعديل ، ص ٢٨ ، ج ١ .

(٤) الجرح والتعديل ، ص ١٩ ، ج ١ .

(٥) المحدث الفاصل بين الراوى والواعى ، ص ٧٩ : أ - ب . والجرح والتعديل ،

( كان ابن سيرين ، وإبراهيم النخعي ، وطاوس وغير واحد من التابعين يذهبون إلى ألا يقبلوا الحديث إلا عن ثقة يعرف ما يروى ، ويحفظ ، وما رأيت أحداً من أهل الحديث يخالف هذا المذهب ) (١) .

لهذا اعتنى المحدثون بمعرفة أحوال الرواة وبلدانهم وسماعاتهم ، وسألوا عنهم ، وتكلموا في الجرح والتعديل ، قال السخاوي : ( وأما المتكلمون في الرجال فخلق من نجوم الهدى ، ومصايح الظلام المستضاء بهم في دفع الردى ، لا يتبها حصرهم في زمن الصحابة ، سرد ابن عدى في مقدمة كاملة خلقاً إلى زمنه ( ٢٧٧ - ٣٦٥ هـ ) ، فالصحابه الذين أوردتهم : عمر ، وعلى ، وابن عباس ، وعبد الله بن سلام ، وعبادة بن الصامت ، وأنس ، وعائشة ، رضى الله عنهم . . وسرد من التابعين عدداً كالشعبي ، وابن سيرين ، وسعيد بن المسيب ، وابن جبير ، ولكنهم فيهم قليل بالنسبة لمن بعدهم لقلّة الضعف في متبوعهم ، إذ أكثرهم صحابة عدول ، وغير الصحابة من المتبوعين أكثرهم ثقات . ولا يكاد يوجد في القرن الأول الذي انقرض فيه الصحابة وكبار التابعين ضعيف إلا الواحد بعد الواحد ، كالحاث الأعور والمختار الكذاب ) (٢) . وكان المحدثون يبينون أحوال الرواة وينقلونهم ويعدلونهم حسبة الله ، لا تأخذهم خشية أحد ولا تتملكهم عاطفة ، فليس أحد من أهل الحديث يخاف في الحديث أباه ولا أخاه ولا ولده ، سئل زيد بن أبي أنيسة عن أخيه فقال : ( لا تأخذوا عن أخي ) (٣) ، وسئل علي بن المديني عن أبيه فقال : ( سلوا عنه غبري ، فأعادوا المسألة ، فأطرق ، ثم رفع رأسه فقال : هو الدين ، إنه ضعيف ) (٤) .

وكانوا يأمرّون طلابهم وإخوانهم أن يبينوا أحوال الرواة ، قال عبد الرحمن بن مهدي : ( سألت شعبة وابن المبارك والثوري ومالك بن أنس

(١) مقدمة التمهيد ، ص ١٠ : ب .

(٢) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ١٦٣ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، ص ١٢١ ، ج ١ .

(٤) الإعلّان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ٦٦ .

عن الرجل يتهم بالكذب ، فقالوا : انشره ، فإنه دين ( ١ ) ، وقال يحيى ابن سعيد : ( سألت سفیان الثوري وشعبة ، ومالكاً ، وابن عيينة عن الرجل لا يكون ثبتاً في الحديث ، فيأثني الرجل فيسألني عنه ، قالوا : أخبر عنه أنه ليس بثبت ) ( ٢ ) .

وكان النقاد يدققون في حكمهم على الرجال ، يعرفون لكل محدث ما له وما عليه ، قال الشعبي : ( والله لو أصبت تسعاً وتسعين مرة وأخطأت مرة لعدوا على تلك الواحدة ) ( ٣ ) .

وكانت المظاهر لا تغريهم ، وكل ما يهيمهم أن يخلصوا العمل لله ، ويصلوا إلى الحق الذي ترتاح عنده ضمائرهم ، لخدمة الشريعة ، ودفع ما يشوبها ، وبيان الحق من الباطل ، قال يحيى بن معين : ( إنا لنظن على أقوام لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة منذ أكثر من مائتي سنة ) ( ٤ ) قال السخاوي : ( أي أناس صالحون ، ولكنهم لبسوا من أهل الحديث ) ( ٥ ) .

هكذا بين جهابذة علم الحديث - منذ صدر الإسلام إلى عهد التدوين والتصنيف - أحوال الرواة : المقبول منهم والمتروك ، وألفت مصنفات ضخمة في الرواة وأقوال النقاد فيهم ، حتى إنه لم يعد يختلط الكذابون والضعفاء بالعدول الثقات ، كما ألفت مصنفات ومعاجم خاصة بالضعفاء والمتروكين ، وأصبح من السهل جداً على أصحاب الحديث أن يميزوا الخبيث من الطيب في كل عصر ، وقد بنى النقاد حكمهم في الرواة على قواعد دقيقة ، فقدموا للحضارة الإنسانية أعظم إنتاج في هذا المضمار ، يفخر به المسلمون أبد الدهر ، وتعتز به الأمة الإسلامية التي شهد لها كبار العلماء بأيادها البيضاء في خدمة السنة الشريفة ، قال المستشرق الألماني « شرنجر »

( ١ ) مقدمة التمهيد ، ص ١٢ : ب .

( ٢ ) صحيح مسلم بشرح النووي ، ص ٩٢ ، ج ١ .

( ٣ ) تذكرة الحفاظ ، ص ٧٧ ، ج ١ .

( ٤ ) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، ص ١٦٠ : أ .

( ٥ ) الإعلان بالتبويب لمن ذم التاريخ ، ص ٥٢ .

في تصدير كتاب الإصابة لابن حجر - طبعة كلكتا سنة ١٨٥٣ - ١٨٦٤ م - :  
( لم تكن فيما مضى أمة من الأمم السالفة ، كما أنه لا توجد الآن أمة من  
الأمم المعاصرة أنت في علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هذا  
العلم العظيم الخطر الذي يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل وشئونهم . . . ) .  
وقد ظهرت تلك المصنفات منذ أواخر القرن الهجري الثاني وطلائع  
القرن الثالث .

وإلى جانب هذا فقد التزم العلماء رواية الحديث بأسانيده ، وكانوا  
يتثبتون من صحة الأحاديث بالارتحال إلى الصحابة وكبار التابعين ، ويقارنون  
بين طرق الأحاديث ، ومتونها ، ويعرفون زيادات الرواة فيهما ، كما  
قسموا الأحاديث درجات يعرف بها المقبول من الردود ، والقوى  
من الضعيف .

فلم تصلنا الأحاديث في أمهات مصادرها إلا بعد جهود عظيمة بانها  
أسلافنا العظام ، الذين خدموا السنة خدمة جليلة ، وتفانوا في سبيل حفظها  
وصيانتها .

وقد هيا الله عز وجل لحفظ شريعته حفاظاً متقنين ضابطين ، نقلوا  
حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحفظوا على الأمة شريعته  
ودينها ، في مختلف العصور منذ عصر الصحابة إلى ما بعد التدوين وظهور  
مصنفات الحديث العظيمة ، وقد وهب الله تعالى هؤلاء الحفاظ حوافظ  
قوية ، وإن التاريخ يروى لنا ما كان يحفظه أبو هريرة ، وعبد الله  
ابن عمر وأنس بن مالك ، وعائشة أم المؤمنين التي كانت آية من آيات  
الذكاء والحفظ ، وعبد الله بن عباس الذي اشتهر بسرعة حفظه ، حتى إنه  
كان يحفظ الحديث من مرة واحدة ، وقد سمع قصيدة لابن أبي ربيعة  
عدها ثمانون بيتاً فحفظها من المرة الأولى ، وفي الصحابة أمثاله كزيد بن  
ثابت الذي حفظ معظم القرآن قبل بلوغه . وتعلم لغة اليهود في سبعة عشر  
يوماً . وجابر بن عبد الله ، وأبي سعيد الخدري وغيرهم من أعلام الصحابة  
في الحفظ والضبط والإتقان .

وفي التابعين نافع مولى عبد الله بن عمر الذي لم يخطيء فيما حفظ ، وأجمع النقاد على دقة حفظه ، وفيهم محمد بن سيرين ، وسعيد بن المسيب وابن شهاب الزهري حفظا عصرهم ، وعامر الشعبي ديوان زمانه ، وقنادة ابن دعامة السدوسي مضرب المثل في سرعة الحفظ والضبط والإتقان ، وغيرهم من التابعين .

وأما في عهد أتباع التابعين ومن بعدهم فقد كثر الحفاظ كثرة عظيمة ، واتسع النشاط العلمي حتى إنه ما كانت تخلو مدينة من كبار الحفاظ الذين تشد الرحال إليهم ، أمثال سفیان الثوري ، والإمام مالك بن أنس ، وسفيان ابن عيينة ، وعبد الله بن المبارك ، ويحيى بن سعيد القطان ، وعلي بن المديني ، وإسحاق بن راهويه ، والإمام أحمد ، والإمام البخاري ، ومسلم ، وأبي حاتم الرازي ، وأبي زرعة وغيرهم من أئمة الحديث وحفاظه .

وقد ساهمت الأقلام والدفاتر في حفظ الحديث إلى جانب حفظه في الصدور ، فنذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب عبد الله ابن عمرو بن العاص صحيفته الصادقة بين يديه صلى الله عليه وسلم ، كما سمح لغيره ممن لا يحفظ بالكتابة كسماحه ( لأبي شاه ) اليميني ، كما أن كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم كتبوا بين يديه الكريمتين بعض الأحكام إلى أمرائه وولاته في البلدان .

وأما ما ورد من نهي عن الكتابة فقد كان خشية إلتباس القرآن بالسنة ، وخوفاً من أن ينشغل الناس آنذاك عن القرآن الكريم ، وقد سمح الرسول لبعض المتقنين بالكتابة ، كما سمح لمن لا يقدر على الحفظ أن يكتب ، ثم أسيحت كتابة الحديث ، ولهذا كان كثير من التابعين يكتبون بين يدي الصحابة ، كما كان عند بعض الصحابة بعض الصحف التي فيها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كالصحيفة التي كانت في قائم سيف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، والصحيفة التي وجدت في قائم سيف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، والكتاب الذي كتبه أبو بكر الصديق لأنس بن مالك في الصدقات التي فرضها الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما كان عند

سعد بن عباد الأنصاري ( - ١٥ هـ ) كتاب أو كتب فيها طائفة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مثل ذلك عند أبي رافع مولى الرسول الكريم ، وعند غيره ، وإن المقام يضيق عن حصر ما كتب في عهد الصحابة والتابعين (١) ، ومع هذا لا بد من الإشارة إلى أن صحيفة عبد الله ابن عمرو ، وهي (الصحيفة الصادقة) قد دوت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن أشهر ما دون في عصر الصحابة صحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري (١٦ ق ٥ - ٧٨ هـ) ولعل بعضها دون في عهده صلى الله عليه وسلم ، و (الصحيفة الصحيحة) التي أملاها أبو هريرة على همام بن منبه وغيرها من الصحف التي كانت عند عروة بن الزبير ، وخالد بن معدان الكلاعي ، وأبي قلابة ، والحسن البصري ، وكثرت كتب العلماء حتى بلغت كتب الصحابي الجليل عبد الله بن عباس حمل بعير. وقد نقلت كتب الزهري بعد مقتل الوليد بن يزيد الأموي (٨٨ - ١٢٦ هـ) من خزائنه على الدواب ، وقد شاع التدوين في مطلع القرن الهجري الثاني بين العلماء ، وأصبح من النادر ألا ترى لأحدهم تصنيفاً أو جامعاً فيه بعض أبواب الحديث .

وقد تبنت الدولة رسمياً في عهد عمر بن عبد العزيز تدوين الحديث ، فكتب إلى الأمصار يأمر العلماء بجمعه وتدوينه، وكان فيما كتبه لأهل المدينة: ( انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاكتبوه ، فإنني خفت دروس العلم وذهاب أهله ) ، وكتب إلى أمير المدينة ، أبي بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم ( - ١١٧ هـ ): ( اكتب إلى بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبحديث عمرة ، فإنني خشيت دروس العلم ، وذهاب أهله ) .

كما أمر ابن شهاب الزهري ( - ١٢٤ هـ ) وغيره بجمع السنن ، فكتبوها له ، وكان ابن شهاب أحد الأعلام الذين شاركوا في جمع الحديث والكتابة . قال: ( أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن ، فكتبناها دفترأ دفترأ فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترأ ) ...

(١) بسطت القول في هذا في كتابي « السنة قبل التدوين » تحت عنوان « أشهر ما دونه

وقد تبين لى من متابعة بحث التدوين أن عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز حين ولى إمرة مصر - كتب إلى محدث حمص التابعى الجليل كثير بن مرة الحضرمى ، الذى أدرك سبعين بديراً من الصحابة - أن يكتب إليه بما سمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حديث أبى هريرة فإنه كان عنده ، ولا يظن بكثير إلا أن يستجيب لطلب الأمير ، فيجتمع له بهذا ما كان عنده من حديث أبى هريرة وما عند كثير . ويكون ما فعله الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد هذا - من العناية بالحديث ومطالبة العلماء فى الأمصار المختلفة بكتابه والجلوس لمدارسته - ليس إلا امتداداً لما شرع فيه أبوه من قبل .

ولم يلبث تيار النشاط العلمى ، وكتابة الحديث أن طالع العالم بمدونات حديثية مختلفة، على يدى علماء النصف الأول من القرن الهجرى الثانى، وقد ظهرت هذه المصنفات فى أوقات متقاربة فى مختلف مناطق الدولة الإسلامية . فكان أول من صنف فى مكة عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج البصرى ( - ١٥٠ هـ ) ، وأول من صنف فى المدينة المنورة مالك بن أنس ( ٩٣ - ١٧٩ هـ ) ، ومحمد بن إسحاق ( - ١٥١ هـ ) ، ومحمد بن عبد الرحمن ابن أبى ذئب ( ٨٠ - ١٥٨ هـ ) ، وقد صنف موطأ أكبر من موطأ الإمام مالك . وأول من صنف بالبصرة الربيع بن صبيح ( - ١٦٠ هـ ) ، وسعيد بن أبى عمرو ( - ١٥٦ هـ ) ، وحمام بن سلمة ( - ١٧٦ هـ ) وصنف سفيان بن سعيد الثورى ( ٩٧ - ١٦١ هـ ) بالكوفة ، ومعمربن راشد ( ٩٥ - ١٥٣ هـ ) باليمن ، والإمام عبد الرحمن عمرو الأوزاعى ( ٨٨ - ١٥٧ هـ ) بالشام ، وعبد الله ابن المبارك ( ١١٨ - ١٨١ هـ ) بخراسان ، وهشيم بن بشير ( ١٠٤ - ١٨٣ هـ ) بواسط ، وجريز بن عبد الحميد ( ١١٠ - ١٨٨ هـ ) بالرى ، وعبد الله ابن وهب ( ١٢٥ - ١٩٧ هـ ) بمصر كما لا أشك فى أن الليث بن سعد المصرى الفقيه الإمام المشهور ( - ١٧٥ هـ ) كان قد جمع وصنف ، لما عرف عنه من نشاط علمى واسع وصلة دائمة بعلماء المشرق الإسلامى . ثم تلاهم كثير من أهل العلم فى عصرهم فى النسخ على منوالهم ، وقد كان هذا التصنيف بالنسبة إلى جمع الأبواب وضمها إلى بعضها فى مؤلف ،

أو مصنف أو جامع ، وأما جمع حديث إلى مثله في باب واحد ، فقد سبق إليه التابعي الجليل عامر بن شراحيل الشعبي ( ١٩ - ١٠٣ هـ ) .

وكان معظم تلك المصنفات ، والمجاميع يضم الحديث الشريف وفتاوى الصحابة والتابعين ، كما هو واضح في موطأ الإمام مالك بن أنس الذي يضم ثلاثة آلاف مسألة وسبعمائة حديث .

ثم رأى بعض الحفاظ أن تفرد أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في مؤلفات خاصة ، فألفت المسانيد ، وهي كتب تضم أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسانيد ، خالية من فتاوى الصحابة والتابعين ، تجمع فيها أحاديث كل صحابي - ولو كانت في مواضيع مختلفة - تحت اسم مسند فلان ، ومسند فلان ، وهكذا .

وأول من ألف المسانيد أبو داود سليمان بن الجارود الطيالسي ( ١٣٣ - ٢٠٤ هـ ) ، وتابعه بعض من عاصره من أتباع التابعين وأتباعهم ، فصنف أسد بن موسى ( - ٢١٢ هـ ) ، وعبيد الله بن موسى العبسي ( - ٢١٣ هـ ) وغيرهم ، واقتفى آثارهم أئمة الحفاظ كأحمد بن حنبل ( ١٦٤ - ٢٤١ هـ ) وإسحاق بن راهويه ( ١٦١ - ٢٣٨ هـ ) ، وعثمان بن أبي شيبة ( ١٥٦ - ٢٣٩ هـ ) وغيرهم .

ويعتبر مسند الإمام أحمد - وهو من أتباع أتباع التابعين - أوفى تلك المسانيد وأوسعها . وكان هؤلاء الأئمة والحفاظ قد جمعوا الحديث ودونوه بأسانيد ، واجتنبوا الأحاديث الموضوعية ، وذكروا طرقاً كثيرة لكل حديث ، يتمكن بها رجال هذا العلم وصيارفته من معرفة الصحيح من الضعيف ، والقوى من المعلول ، مما لا يتيسر لكل طالب علم ، فرأى بعض الأئمة الحفاظ أن يصنفوا في الحديث الصحيح فقط ، فصنفوا كتبهم على الأبواب ، واقتصروا فيها على الحديث الصحيح ، ومن أجل ذلك تكبدوا عناء السفر ، والرحلة في طلب الحديث والبحث ، ولقاء الشيوخ العدول الثقات الضابطين ، ومن يطلع على سير بعض أئمة الحديث وحفاظه يدرك الجهود العظيمة التي بذلت في سبيل حفظ السنة . وهكذا ظهرت الكتب الستة في

ذاك العصر ، عصر أتباع أتباع التابعين : وكان أول من صنف الصحيح الإمام البخارى ثم تبعه بعض أئمة عصره ، ومن تلاهم . وسنذكر لمحة موجزة عن مؤلفى الكتب الستة وكتبهم :

## ١ - الإمام البخارى ( ١٩٤ - ٢٥٦ هـ ) (١) :

هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة (٢) الجعفي البخارى ، أمير المؤمنين فى الحديث . ولد يوم الجمعة (١٣ شوال سنة ١٩٤ هـ) فى مدينة بخارى ، وأول سماعه الحديث سنة (٢٠٥ هـ) ، وحفظ تصانيف عبد الله بن المبارك وهو صغير ، وسبع مرويات بلده من محمد بن سلام ، والمسندى ، ومحمد بن يوسف البيكندى ، ورحل مع أمه وأخيه حاجباً سنة (٢١٠ هـ) ، فألف بالمدينة كتاب التاريخ الكبير ، وهو مجاور قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وزاد على هذا الكتاب مرتين فى آخر حياته ، ورحل البخارى إلى شيوخ الحديث وأئمة ، فذهب إلى بغداد ، والبصرة ، والكوفة ، ومكة ، والشام ، وحمص ، وعسقلان ، وهصر ، وكتب عن أكثر من ألف رجل ، وكان رأساً فى الذكاء ، رأساً فى العلم ، والورع والعبادة .

وكان البخارى يحفظ مائة ألف حديث صحيح ، ومائتى ألف حديث غير صحيح . وكان واسع المعرفة غزير العلم ، قال لسليم بن مجاهد : ( . . ولا

---

(١) أهم مصادر ترجمته ، والتعريف بصحيحه : تاريخ بغداد ، ص ٤ وما بعدها ، ج ٢ . وتذكرة الحفاظ ، ص ١٢٢ وما بعدها ، ج ٢ . وسير أعلام النبلاء ، ص ٢٣٤-٢٥٤ ، ج ٨ . وطبقات الشافعية ، ص ٢ وما بعدها ، ج ٢ . وتاريخ دمشق لابن عساكر ، مخطوطة دار الكتب المصرية النسخة التيمورية ، ص ١١٠ وما بعدها ، ج ٣٧ . وتهذيب التهذيب ، ص ٤٧ وما بعدها ، ج ٩ . وتدريب الراوى ، ص ١٢ وص ٤٩ . وتاريخ الأدب العربى ص ١٦٥ ، ج ٣ .

وانتدبت وزارة الثقافة والإرشاد أستاذنا الدكتور مصطفى زيد لتأليف كتاب فى الإمام البخارى تنشره فى سلسلة أعلام العرب ، أرجو أن يصدر قريباً لينتفع الناس به ، ويأخذ مكانه فى المكتبة العربية .

(٢) بردزبه : يفتح الباء وسكون الراء ، وكسر الدال ، وبعدها زاي ساكنة ، معناها بالفارسية الفلاح ، أو البستاني .

أجبتك بحديث عن الصحابة أو التابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ، ووفاتهم  
ومساكنهم ، ولست أروى حديثاً من حديث الصحابة أو التابعين إلا ولى فى  
ذلك أصل أحفظه حفظاً عن كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه  
وسلم .

وأخباره مع شيوخه وأهل العلم ، وأخبار حفظه وإتقانه كثيرة جداً  
نكتفى منها بما حصل له عندما قدم بغداد .

كان صيت البخارى قد ذاع فى مختلف البلدان ، وعندما قدم بغداد  
أراد أهل الحديث امتحانه فعمدوا إلى مائة حديث ، فقبلوا متونها وأسانيدھا ،  
وجعروا متن هذا الإسناد هذا ، وإسناد هذا لمتن ذاك ، ودفعوا إلى كل واحد  
عشرة أحاديث ليلقوها عليه فى المجلس ، فاجتمع الناس ، وانتدب أحدهم  
فقام وسأله عن حديث من تلك العشرة ، فقال : لا أعرفه ، ثم سأله عن آخره .  
فقال : لا أعرفه ، حتى فرغ من العشرة ، والبخارى يقول : لا أعرفه .  
ثم انتدب آخر من العشرة ، فكان حاله معه كذلك إلى تمام العشرة ، والبخارى  
لا يزيدهم على قوله : لا أعرفه ، فكان الفقهاء يلتفت بعضهم إلى بعض ،  
ويقولون : الرجل فهم ، وأما غيرهم فلم يدركوا ذلك ، ولما فرغوا من  
إلقاء الحديث عليه ، التفت إلى الأول فقال : أما حديثك الأول فهو كذا ،  
وحديثك الثانى كذا ، إلى آخر العشرة ، فرد كل متن إلى إسناده ، وفعل  
بالثانى مثل ذلك إلى أن فرغ ، فأقر له الناس بالحفظ والضبط والإتقان .

خرج البخارى فى آخر حياته إلى قرية ( خرتنك ) وهى على فرسخين  
من سمرقند ، وتوفى بها فى ( ٣٠ رمضان سنة ٢٥٦ هـ ) رحمه الله .

### الجامع الصحيح :

صنف الإمام البخارى كتابه فى ستمائة ألف حديث ، فى ست عشرة  
سنة ، وما وضع فيه حديثاً إلا وصلى ركعتين وقال : ( جعلته حجة بينى وبين  
الله سبحانه ) :

وعدة أحاديث صحيح البخارى ( ٧٢٧٥ ) حديثاً بالمكررة ، وبمخذف

المكرر منها أربعة آلاف حديث : وقد سمع كتاب البخارى تسعون ألف رجل من أهل عصره .

ويعتبر صحيح البخارى أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل . وقد أجمعت الأمة الإسلامية على عظيم منزلته ، فكان منها محل حفظ وعناية ودراسة وتقدير . وكان يقرأ على الناس فى المحافل العامة بالقاهرة فى شهر رمضان زمن المماليك ، وتقام احتفالات كبيرة عند ختام قراءته ، وكان الناس فى الجزائر يحلفون بالبخارى وكتاب الشفاء للقاضى عياض ، وفى الصعيد كان صحيح البخارى شفاء الأسقام ، يحلف الناس به ، ويحترمون به ، والحلف به عظيم لا يقل عن الحلف بالقرآن الكريم ، ولا يزال صحيح البخارى فى منزلة عالية جلية فى الصعيد حتى الآن . وكانت فرق الجند التى تستحلف على صحيح البخارى عند الخدمة فى الجيش ببلدان المغرب - تسمى البخارية .

وللبخارى مؤلفات حديثة كثيرة أشهرها التاريخ الكبير فى ثمانى مجلدات (١) ، والتاريخ الصغير (٢) ، وكتاب الضعفاء (٣) ، والأدب المفرد (٤) ، وله مصنفات فى علل الحديث ، وأسامى الصحابة ، والكنى تبلغ عشرين مؤلفاً ذكرها الحافظ ابن حجر فى مقدمة فتح البارى .



## ٢ - الإمام مسلم ( ٢٠٤ - ٥٢٦١هـ ) (٥) :

هو حجة الإسلام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ،

(١) فيه ترجمة حوالى (٤٠) ألف رجل وامرأة ، ضعيف وثقة . وطبع فى حيدر آباد اعتباراً من سنة (١٣٦١هـ) .

(٢) طبع بالهند سنة ١٣٢٥هـ .

(٣) طبع بالهند سنة (١٣٢٥هـ) وطبع معه كتاب الضعفاء والمتروكين للنسائى .

(٤) طبع أكثر من مرة أحسنها ما طبع بالقاهرة سنة ١٣٧٩هـ بإشراف الأستاذ محب الدين

الخطيب الذى استوفى تخريج أحاديثه وفهارسه .

(٥) أهم مصادر ترجمته والتعريف بكتابه : تاريخ بغداد ، ص ١٠-١٤ ، ج ١٣ .

تذكرة الحفاظ ، ص ١٥٠ - ١٥٢ ، ج ٢ . وتهذيب التهذيب ، ص ١٢٦ ج ١٠ . والبداية

والنهاية ، ص ٣٣ ، ج ١١ . وتدريب الراوى ، ص ٤٢ وما بعدها . والباعث الخبيث ،

ص ٢٢ . وشروط الأئمة الستة للمقدسى . وشروط الأئمة الخمسة للحازمى .

صاحب التصانيف الكثيرة ، ولد سنة ( ٢٠٤ هـ ) وقيل سنة ( ٢٠٦ هـ ) ، كان أول سماعه سنة ( ٢١٨ هـ ) وقدم بغداد مراراً ، وكان آخر قدمه إليها سنة ( ٢٥٩ هـ ) ، ولقى كثيراً من شيوخ الحديث وحفاظه أثناء رحلاته إلى الحجاز ، والعراق ، والشام ، ومصر وغيرها ، وتردد على الإمام البخارى كثيراً عندما قدم البخارى نيسابور ، وعرف فضله وغزير علمه ، وروى عن كثير من أئمة الحفاظ منهم : يحيى بن يحيى ، والقعنبي ، وأحمد بن يونس ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه شيخ البخارى وغيرهم ، وروى عنه كثير من أهل العلم منهم : ابن خزيمة ، ويحيى بن صاعد ، وعبد الرحمن ابن أبي حاتم ، وكان أبو زرعة وأبو حاتم الرازيان يقدمان مسلم بن الحجاج في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما .

وتوفى الإمام مسلم يوم ( ٢٥ رجب سنة ٢٦١ هـ ) في ( نصر آباد ) من قرى نيسابور . رحمه الله .

وقد صنف الإمام مسلم صحيحه من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة ، وفيه بإسقاط المكرر نحو أربعة آلاف حديث . وكتابه أصح كتاب بعد صحيح الإمام البخارى ، ولكل من الصحيحين فوائد عظيمة من حيث كثرة الطرق وجمعها ، وترجمة الأبواب وغير ذلك مما بينته كتب الشروح وعلوم الحديث .

وللإمام مسلم مؤلفات كثيرة غير الصحيح منها : كتاب الأسماء والكنى ، وكتاب التمييز ، وكتاب العلل ، وكتاب الوجدان ، وكتاب الأفراد ، وكتاب الأقران ، وكتاب أولاد الصحابة ، وغير ذلك من الكتب المفيدة في الحديث وعلومه ( ١ ) .



٣ - أبو داود السجستاني (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ) (١) :

هو الإمام الثبت سيد الحفاظ سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني ، صاحب السنن المشهورة . ولد أبو داود سنة (٢٠٢ هـ) ، وطلب العلم صغيراً ، ثم رحل إلى الحجاز والشام ومصر ، والعراق والجزيرة ، وخراسان ، ولقى كثيراً من أئمة الحفاظ ، فسمع من القعني ، وأبي الوليد الطيالسي ، وسليمان بن حرب ، والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم ، وكان أبو داود من العلماء العاملين ، وشبهه بعض الأئمة بالإمام أحمد ، وكان على درجة عظيمة من العبادة والعلم والورع .

وكان قد دخل بغداد مراراً ، وآخر مرة دخلها سنة (٢٧٢ هـ) ، ودعاه أمير البصرة أخو الخليفة الموفق أن يقيم بالبصرة ، بعد فتنة الزنج ، ليعتمر من العلم بسببه ، حين يأتيه طلاب الحديث من كل حذب وصوب . فنزل بها ، وتوفى فيها في (١٦ شوال سنة ٢٧٥ هـ) .

وقد صنف أبو داود سننه على أبواب الفقه ، واقتصر فيها على السنن والأحكام ، فلم يذكر الأخبار والقصص والمواعظ ، قال : ( كتبت عن النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة ألف حديث ، انتخبت منها أربعة آلاف حديث وثمانمائة حديث ضمنها هذا الكتاب ) . وقال : ( ما ذكرت في كتابي حديثاً أجمع الناس على تركه ) . وكان قد عرض كتابه على الإمام أحمد فاستحسنه . وقد أنبئ عليه كثير من أئمة هذا العلم ، وهو أول كتاب بعد الصحيحين . وله مؤلفات غيره في هذا العلم الجليل .



٤ - الإمام الترمذي (٢٠٩ - ٢٧٩ هـ) (٢) :

هو الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ،

(١) تذكرة الحفاظ ، ص ١٥٢ ، ج ٢ . وتاريخ بغداد ، ص ٥٥ ، ج ٩ . وشروط الأئمة الستة المقدسي ، وشروط الأئمة الخمسة للحازمي ، ورسالة أبي داود السجستاني إلى أهل مكة ، بتحقيق الشيخ زاهد الكوثري . وتدريب الراوي ، ص ١٢ .

(٢) أهم مصادر ترجمته والتعريف بكتابه : تذكرة الحفاظ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ ، ج ٢ . تهذيب التهذيب ، ص ٣٨٧ ، ج ٩ . شروط الأئمة الستة المقدسي ، طبع القدسي . وشروط الأئمة الخمسة للحازمي ، طبع القدسي . وتيسير الوصول إلى جامع الأصول ، ص ٩ ، ج ١ . والباحث الحديث ص ٤٣ . وسنن الترمذي بتحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر ، ص ٧٧ - ٩١ ، ج ١ .

ولد بعد سنة مائتين في قرية ( بوج ) من قرى ترمذ على نهر جيحون ، وطلب العلم صغيراً ، ورحل في سبيل ذلك إلى العراق والحجاز وخراسان وغيرها ، ولقى كبار أئمة الحديث وشيوخه ، منهم الإمام البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، وسمع من بعض شيوخهم مثل قتيبة بن سعيد ، ومحمد بن بشار وغيرهما . وروى عنه خلق كثير .

وقد شهد له معاصروه وأهل العلم بالحفظ والضبط والإتقان ، وكان على جانب عظيم من الزهد والورع ، بكى حتى عمى ، وبقي ضريراً سنين آخر عمره . وقال له البخاري : ( ما انتفعت بك أكثر مما انتفعت بي ) . وتوفي بترمذ ليلة الإثنين ( ١٣ رجب سنة ٢٧٩ هـ ) وله سبعون سنة رحمه الله .

وقد جمع الترمذى الفقه إلى جانب علمه بالحديث وعلمه ورجاله وعلمومه ، ويظهر هذا واضحاً في كتابه ( الجامع الصحيح ) المعروف بسنن الترمذى ، وكتابه هذا من أحسن الكتب ، وأكثرها فائدة وأقلها تكراراً ، قال الترمذى رحمه الله : عرضت هذا الكتاب على علماء الحجاز والعراق وخراسان ، فرضوا به واستحسنوه ، ومن كان في بيته فكأنما في بيته نبي يتكلم .

ونظر ترمذى كتاب : الشمائل ، والعلل ، والتاريخ ، والزهد .



## ٥ - الإمام النسائي ( ٢١٥ - ٥٣٠٣ ) ( ١ ) :

هو الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان ابن بحر الخراساني ، النسائي بفتح النون نسبة إلى بلدة بخراسان . ولد

---

(١) أهم مصادر ترجمته والتعريف بكتابه : تذكرة الحفاظ ، ص ٢٤١ ، ج ٢ .  
وتهذيب التهذيب ، ص ٣٦ - ٣٩ ، ج ١ . والبداية والنهاية ، ص ١٢٣ ، ج ١١ .  
وطبقات الشافعية ، ص ٨٣ ، ج ٢ . وشروط الأئمة الخمسة للحازمي . وشروط الأئمة الستة  
للمقدسي ، وتيسير الوصول ، ص ٩٠ ، ج ١ . وتدريب الراوي ، ص ٤٩ .

سنة ( ٢١٥ هـ ) ، وطلب الحديث صغيراً ، ورحل إلى قتيبة بن سعيد وله خمس عشرة سنة عام ( ٢٣٠ هـ ) وأقام عنده سنة وشهرين ، وسمع إسحاق ابن راهويه ، وهشام بن عمار ، ومحمد بن النصر المروزي ، وأمثالهم ، ورحل إلى الحجاز والعراق ، ومصر والشام والجزيرة ، وبرع في هذا الشأن ، وتفرد بالمعرفة والإتقان ، وعلو الإسناد ، واستوطن مصر وحدث عنه كثيرون ، وكان كثير العبادة في الليل والنهار متمسكاً بالسنة ، ورعاً متحريراً . والراجح بالنسبة لوفاته أنه خرج من مصر في شهر ذى القعدة سنة ( ٣٠٢ هـ ) وتوفي بفلسطين بالرملة يوم الإثنين ( ١٣ صفر سنة ٣٠٣ هـ ) ، ودفن ببيت المقدس ، رحمه الله .

وإلى جانب علمه بالحديث وعلومه ، كان فقيهاً ، شافعي المذهب ، وله مناسك على مذهب الإمام الشافعي . قال علي بن عمر الحافظ : أبو عبد الرحمن النسائي مقدم على كل من يذكر في زمانه في هذا العلم . وقد صنّف سننه ولم يخرج فيها عن راو أجمع النقد على تركه ، فكانت ( السنن الكبرى ) ، التي قدمها إلى أمير الرملة . فقال له : أكل ما فيها صحيح ؟ فقال : فيها الصحيح والحسن وما يقاربهما . فقال له : فاكتب لنا الصحيح منه مجرداً . فاستخلص من السنن الكبرى « السنن الصغرى » وسأها ( المجتبى من السنن ) ، وقيل المجتبى ، والمعنى واحد . والسنن الصغرى أقل السنن حديثاً ضعيفاً ، ولهذا كانت برتبة سنن أبي داود أو دونها بقليل ، ولم يذكر في المجتبى من السنن ، كل حديث تكلم في إسناده بالتعليل . وله عدة مؤلفات سوى السنن منها ( الضعفاء والمتروكون ) طبع بالهند سنة ( ١٢٣٥ هـ ) .



٦ - الإمام ابن ماجه ( ٢٠٩ - ٥٢٧٣ ) ( ١ ) :

هو الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه الربيعي ، صاحب السنن والتفسير والتاريخ ومحدث قزوين في عصره . ولد سنة ( ٢٠٩ هـ ) وسمع من أئمة عصره ، ورحل إلى العراق والحجاز ومصر والشام وغيرها من البلاد . وتوفي في ( ٢٢ رمضان سنة ٢٧٣ هـ ) وصلى عليه أخوه أبو بكر ، وتولى دفنه أخواه أبو بكر ، وعبد الله ، وابنه عبد الله . قال أبو يعلى الخليلي : ابن ماجه ثقة ، كبير ، متفق عليه ، محتج به ، له معرفة وحفظ .

صنف ابن ماجه سننه فجمع فيها الصحيح والحسن والضعيف والواهي ، لهذا لم يدخلها بعضهم في الكتب الستة ، وأول من اعتبرها سادس الكتب الصحيحة الحافظ أبو الفضل بن طاهر المقدسي ( - ٥٠٧ هـ ) في كتابه ( أطراف الكتب الستة ) ومن العلماء من جعل الموطأ أحد الكتب الستة . ومع هذا فلسنن ابن ماجه فوائد كثيرة كما قال الذهبي : ( سنن أبي عبد الله كتاب حسن ، لولا ما كدره أحاديث واهية ، ليست بالكثيرة ) .

وقد خدم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي هذه السنن وأحصى أحاديثها فكان جملة أحاديث سنن ابن ماجه ( ٤٣٤١ ) حديثاً . من هذه الأحاديث ( ٣٠٠٢ ) حديثاً أخرجها أصحاب الكتب الخمسة كلهم أو بعضهم . وباقى الأحاديث وعددها ( ١٣٣٩ ) حديثاً هي الزوائد على ما جاء في الكتب الخمسة . وبيان الزوائد : .

أولاً - ٤٢٨ حديث رجالها ثقات ، صحيحة الإسناد .

ثانياً - ١٩٩ حديث حسنة الإسناد .

ثالثاً - ٦١٣ حديث ضعيفة الإسناد .

---

(١) أهم مراجع ترجمته والقول في كتابه : تذكرة الحفاظ ، ص ١٨٩ ، ج ٢ . وتهذيب التهذيب ، ص ٥٣٠ ، ج ٩ . وشروط الأئمة الستة للحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي ، طبع القدسي سنة ( ١٣٥٧ هـ ) . وسنن ابن ماجه ، ص ١٥١٩ و ١٥٢٠ ، ج ٢ . وتدريب الراوي ، ص ٤٩ .

رابعاً - ٩٩ حديثاً واهية الإسناد أو منكورة ، أو مكذوبة :  
ولهذا كان على الباحث ألا يأخذ بحديث من سنن ابن ماجة إلا بعد  
معرفة درجته ، وقد سهل الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي على الباحث التحرى  
والبحت بخدمته هذا الكتاب ، فجزاه الله عن المسلمين وأهل العلم كل خير .  
كانت تلك لمحة سريعة موجزة حول الكتب الستة ومؤلفيها ، وهي لا  
تعدو قصد التعريف بتلك المصنفات الحليمة وبأصحابها ، وأما القول في  
منهج مصنفها وترتيب كتبهم وشروطهم فإنه يحتاج إلى كتاب خاص بذلك .  
وقد لقيت هذه الكتب عناية كبيرة من أهل العلم بالشرح والاختصار  
والاستخراج عليها ، وما إلى ذلك . .

وهناك كتب جليمة في الحديث سوى ما أسفلنا ذكره من الموطآت  
والمسانيد والصحاح ، ككتب الإمام ابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم ،  
والدارقطني ، والبيهقي ، والبعثي ، وغيرهم من أئمة الحديث في العصور  
المختلفة .

وقد طال بنا المطاف إلى راوية الإسلام ، فنكتفي بذلك ، لننتقل إلى  
موضوعنا المقصود أولاً ، والله ولي التوفيق .



obeikandi.com